قِناعٌ .. حُلْمٌ .. ورَجُلٌ



قِناعْ .. حُلمْ .. ورَجُلْ

غنوة موسى

رواية

اسم الكتاب: قِناعْ .. حُلمْ.. وَ رَجُلْ.

المؤلف: غنوة موسى.

الطبعة الأولى: ٢٠١٣.

عدد النسخ: ١٠٠٠.

الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-22-031-0

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في دار مؤسسة رسلان للطباعة و النشر

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار مؤسسة رسلان

للطباعة و النشر و التوزيع

دمشق – جرمانا – الآس الشرقي

هاتف: ٠٠٩٦٣١١٥٦٢٧٠٦٠

هاتف:٠٠٩٦٣١١٥٦٣٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣٥٦٣٢٨٦٠

ص .ب : جرمانا ٢٥٩

الإهداء

إلى كلّ من تألّم فقداً ..
أنحني .. و أصمت إجلالاً لحزنهِ

إلى أرواحِ من رَحَلوا .. ولازال حضورهم
مستمرّ بالنِّسبةِ لذاكرتي وقلبي

إلى كتفٍ تسند كتفي لحظة تعثر..
يدٍ تمتد ليدي لتساعد على الوقوف..
و قلبٍ يشعر بألمي قبل أن أنطق به.. أمي

إلى مَن لأجلِهما أتابع المَسير ..
ولديّ .. جود و جنى

إلى مَن أخذَ بيدي.. فرَفَعني
مرتبةً مِنَ الفخر .. ماهر

يا سيّد الأحلام ..

كفاكَ لهواً بأوراقي .. أخشى عليها مِنَ التَّلفِ .

في كتابٍ خلقتكَ .. التقيتكَ .. فصعقتني ..

سَرى بيَ العشق لِيُحدِثَ جنوناً في حياتي..

يفجِّر قنبلةً موقوتةً في قلبي ..

إلى أن خَمدَتْ ناري وتحوَّلتْ إلى رماد ..

حتى صرتُ توّاقة لرائحةِ القبور ..

فَمَنْ عساي أزورُ صبيحة غد ..

وكم مِن خرابٍ سَتُرمِّم بعدَ موتي

في كتابٍ جديد .. ! .

يا ... سيِّدي القيصر

شكر خاص

إلى

الأستاذ الدكتور غسان غنيم

المحامي الأستاذ ابراهيم كمال سليمان

وكلّ مَن ساهم بإنجاز هذا العمل .

شهادة أدبية

بقلم الدكتور غسان غنيم

أستاذ الأدب الحديث و المعاصر

جامعة دمشق

قد توحي الأعمال الجديدة بشيء من التردد في إصدار أحكام أو توصيفات فثمة خوف حقيقي أمام أي عمل لم يصرح بقيمته الأدبية والفكرية.

و لكنني أمام نص ((قناع..حُلم...ورجل)) سأكسر هذه الفكرة ، فما إن أنهيت قراءة النص ، حتى وجدتني امام حيرة.و دهشة.و تساؤل..ما هي تجربة كاتبة هذه السطور؟ و هل لها تجربة أدبية سابقة؟ هل تمتلك مؤهلاً و موهبة و تجربة حياة و سعة مخزون أدبي ، أفرزت مثل هذه الانسيابية الأدبية الرشيقة و مثل هذا الكم من الإحساس؟

و ما كان مني إلا أن سألت الصديق الذي رشح لي العمل طالباً رأياً لا مجاملة فيه. و عندما أخذت الأجوبة وجدت نفسي أمام إقرارٍ لا بد أن أقره، إن الموهبة تُخلق مع

المختارين، الذين قد تعوزهم الرؤيا بداية، و لكن لا بد للتجربة من أن تصقل الموهوب..

في هذا النص حكاية و مقولة.و تجربة حياة، و كلها قد يكون مألوفاً، و لا يشكل اختراقاً أو استثناءً و لكن النص - لا شك - داخل في دائرة الأدبية، بلغة تحمل من الشفافية و الثقل الوجداني ما جعلها قادرة على الفعل و التأثير في المتلقي، و حمله على الاندماج في حالة وجدانية مشابهة لحالة الشخصية أو المؤلف . أي أنها لغة خلقت معادلاً موضوعياً قادراً على استثارة القارئ بغض النظر عن موافقته على الفكرة أو المقولة.

((قناع.. حلم.. و رجل)) عمل يحمل سمات الأدبية بجدارة تتصدر فيه اللغة موقع الصدارة أو تقف في النسق الأول من الريادة، و تحمل من الرومانسية و المثالية التي تثبت الشيء الكثير من إنسانية الإنسان.

حكاية امرأة تحمل الإباء الحنون و ليس الإباء المشاكس..امرأة أحبت و أعطت و ظلت مستعدة أن تحب ((بحسب وصية جدتها)) و لا تنتظر إلا القليل من دفء الكلمة و حنان الموقف ، لتفنى بعدها حباً..

قِناعْ .. حُلمْ.. وَرَجُلْ

لا تتكلّمي عن نفسكِ .. عن أحلامكِ ..

لا تقولي أنا فهناك دائماً مَن يتربَّص بك ..
من قضى حياته ينصب فخاخاً تحسُّباً ليومٍ كهذا
تكتبين رجولتهُ على مَرأى أناه..
ليقتُلَ أناكِ قبلَ أن تصل بخطوةٍ واحدةٍ .
فإن صادفتِهِ في محطَّةٍ من عمرهِ .. تكلّمي بأناه .. بذاته لا بذاتك .. بلسانهِ .. وحتّى بأحلامهِ
اتركي أحلامكِ حبيسةَ جوفكِ لأنهُ لن يدركها أبداً ..
وإن أدركَكِ قتلك قبل أن يعلنَ نجاحكِ
فأنتِ مهما انتميتِ لسطوةِ أفكارهِ .. لستِ هوَ

ها هوَ يقفُ أمامَها على أعلى دَرَجاتِ سُلَّمِ الشَّرَف مُتمَركِزاً بكلِّ ثِقلِهِ ..
هيَ التي لم تخبَرْ شيئاً عن مَكر النساء .. حيل النساء .. وألاعيبهنَّ لِكسْبِ الرَّجلِ ورقة رابحة .

بدأ يتعَرّى أمامَها نازعا أحد أقنعةِ رجولتِهِ لِيَسيرَ حافيا فتعلمُ بذكاءٍ أنثى أنَّ عليها إحضار الحِذاءِ لِتقدِّمه مُنحنية أمامَ قدَمَيهِ ..

هيَ التي حَمَلتْ في حقيبتها رسالةَ الجَدَّةِ بشَرحِها المُفصَّل (لِسي السَّيد) .. لكنها اليوم فقط أدرَكتْ أنه رَجُلها .. لِتفتحَ الحقيبة وتعيد قراءة السّطور ..

فتدَرِّب نفسها على العودةِ لِذاكَ الزمَنِ عله يكون زمنه دون عِلمها ..

فتحفظ تعاليمه عن ظهر حُبّ .. لتعامِله بعفويَّةِ براءتها .. وبرَغباتِهِ المُسْتَتِرةِ تحتَ قناعِ المُساواة.

وأكثر ما يؤلمهُ هو احترامها لذاكَ القناع وإعادة تأهيله وتقديمه إليهِ مع الحذاءِ بانحناءةٍ واحدةٍ ..

فيُخفي ألمهُ .. وتغضّ النظر .. لا لأنها غير مبالية بألمِهِ بل لرفضِها معرفته بمعرفتِها .... لأجلِهِ .

لكنه لازالَ عاشِقاً ذاكَ الرَّجل الذي كان هو .. والذي أصبحَ يُشبهه إلى حدٍّ ما .

رغم أنه لا يَفهَمها .. ففي قِمَّةِ غضَبِهِ لا يُترجم هدوءها إلا بلغةِ الأقنِعَةِ .

هي تعذره .... لأنه لم يَرْضَعِ البراءةَ يوماً .. لم يرثها .. بل ارتداها قِناعاً لِحسنِ السّلوك .

هو الذي يُجيدُ الحُضورَ أمامَ النساء .. أهداها يوماً وردة حمراء برسالةٍ مُتوَهِّجَة عِشقاً بلقائِهما الأوَّل بعد أن أذهَلَهُ حضورها بطفولةٍ و أمومَةٍ معاً .

يقفُ اليوم أمامَ صِدقِ مشاعرها مُحاولاً تجريدها من كلّ مَنْ تحِبّ .. لِيَجعَلها خاليةً إلا منهُ ..

هيَ التي أحَبّتهُ بهم .. عاشَرَته من خِلالِهم .. ومَنحَتهُ لبَّ قلبها و شِغافه الذي احتواهم معه في آنٍ واحد .. لِتصبحَ مُستعِدَّة للتخلّي عن كلِّ شيءٍ لأجلهِ .. ولفِعل أيِّ شيءٍ .. ما عدا شدّ لجام مشاعِرها لحظة ألمٍ بعد أن لفظَها القدر إلى حياةٍ مِلؤها الفقد حتى باتتْ ذاكرتها ترتدي ثوبَ الفاجعَةِ بخِفةٍ ومَهارةٍ كلّما استضافتها بجَلسَةِ حنين لِتلفَّ سوادها بوشاحٍ مُطرَّزٍ من نسجِ الخيال وهي تسْتحْضِرمَنْ رَحَلوا على وَرَقٍ.. مُرتمِيَةً في أحضانِهم لِتحيا مَعَهُم بين السُّطورِ..

وأكثر ما يؤلِمها هو غياب الحاضرين .. إذ لازالَ حضورالغائِبينَ مُستمِرّاً بالنسبةِ لذاكرتِها .

كان يَعي حاجتها إليهِ في غيابهم كما يَعي حاجتها إليهم في غيابه .. لكنه تنكرَ لاِحتياجاتِها في زمنٍ لم يَعُدْ يَعنيهِ معها إلا تلميع رجولته.

هي تعذره.... وتنحني أمامَ صلابَتِهِ .. فهو لم يَرضَعِ العاطفة يوماً .. لم يَرثها بل حَمَلها وردةً برسالةٍ عابرة .

هوَ الذي عَلّمَتهُ الحياة وفاءَ الأنثى وغدرها .. صدقَ الأنثى ومَكرها .. حِكمَةَ الأنثى وغباءَها .

يُغادِرُ المَنزلَ ليعودَ في اليوم التالي ناسِياً قناعهُ اللآخر حيثُ خَلعَهُ .. في فِراشٍ غيرِ فِراشِها ..

لمْ تغفُ لحظة في غيابهِ .. كانتْ تستعيدُ رسالةَ الجَدَّةِ مُدَرِّبَةً حِكمَةَ الأنثى لِمواجَهَةِ خيانةِ رجل في ذكرى زواجها العاشر ..

وَقفتْ أمامَ النافذةِ تترَقبُ عودته لِتعانِقهُ مِنَ الخلفِ كيلا تقفَ مواجَهَة مع ملامحِ تأنيبِ ضميرهِ ..

حِرصاً منها على عدم خدش مشاعر رجولته

فيُمَزِّق أذنها بأصواتِ غضبهِ مُحاولاً تمزيق هدوء حِكمَتها أمامهُ .. خالِعاً كلّ أقنعة الأمانة أمامَ قالبٍ لم يُحضِرهُ من الحلوى ..

مُشْعِلاً فيهِ عشر شموع من نيرانِ فشلهِ في إسقاطِها بفخاخِ غلِّ النساء واستنطاقِهنَ رجلاً لحظة خيانة .

هو الذي يُجيدُ قراءة حكمة هدوئها .. تتكَّرَ اليوم لرزانتِها باستقبالِهِ مُستخدِماً لغة الرّجولةِ المُجَرَّدَةِ من قناعِ العدلِ بإصدارِ الأحكام .

لم تحاسِبْه .... فلم يَرْضَعِ النبلَ يوماً .. لم يَرِثهُ .. بل ارتداهُ وشاحاً يَلفُّ عُنقهُ لِيُخفي آثارَ الخيانةِ عَمدا.

تقفُ اليوم عاجزة عن تذكّرِ مَلامِحه لِفَرْطِ ما استبدَلَ من أقنِعَةٍ أمامَ حبّها ..

لِتنتصِبَ أمامَ سُلمِ الشّرَفِ مُحَدِّقة بآثارِ قدَمَيهِ فلا تجد سوى غبارٍ عالِقٍ .. مجموعَةٍ مُزركشَةٍ مِنَ الأقنِعَةِ ..

و وردةٍ حمراءَ بتويجاتِها المُبَعْثَرَةِ ..

ترسمُ ابتسامة صفراء .. تلمْلِمُ بقايا الوردة لِتحفظها في كتابٍ لن يَقرأهُ يوماً .. تعِدُّ مِن خلالِهِ عمرها الآتِي معه .. أو من دونه .. وتعيدُ تأهيلَ الأقنِعَةِ لأجلِهِ .

هو الذي كلما حاوَلَ استخدام ملامحه الأصليَّة فشِلَ في إدراكِ ذاته .. وفشِلتْ في ترويضِ ذاكَ الطفل المُهَمَّشِ بداخلِهِ ..

لِتسيرَ نحوَهُ ببراءَةِ خطاها .. حافِيَة الـرَّدِ بصَمتٍ مَدروسٍ .. مُتعرِّيـة مـن كـلّ الألقـاب الـتي تنسـبها إليـهِ .. بعـد أن فشِلتْ بإبطـالِ مفعول ألغـام زرَعَهـا في طريقها إليـهِ طـوال عشرة أعوام خلتْ ..

لِتحمِلَ سِلاحَهُ وتطلق رصاصَتهُ الأخيرة نحوَ قلبها لتقتلَ ما تبقى منهُ بداخِلِها .. بعدَ أن قتلَ أحلامَها بعودتِهِ رجلها ينحني أمامها .. يَمْسَحُ آثارَ العِشقِ السّائِلِ منها .. وبلحظةِ استدارَتِهِ تلفته أقنِعَتهُ المُلمَّعة قربَ جثمان صَبرها .

فيرتديها بخِفَّةٍ مُغلِقاً وراءَه الباب .. داسَّاً في جيبهِ منديلاً برائِحَةِ عبورها الرّزين ..

يأخذ نفساً عميقاً وينطلقُ نحوَ غدٍ آتٍ من دونِها بفرحِ رجولتهِ المُقنعة .

وتعذره .... فلم يَرْضَعْ حسن المُعاشَرَةِ يوماً .. لم يَرِثه .. بل ارتداهُ حِذاءً لِراحَةِ قدميهِ .

هاأنذا أصرخ .. يا نساء الأرض :

إنْ وَقفتنَّ يوماً أمامَ رَجُلٍ مُقنعٍ وتجَرَّأ على خلعِ أحد أقنعتِهِ أمامَكنَّ .. لا تُعِدْنَ تأهيلَ الأقنِعَةِ لأجلِهِ بل

أحْرِقنَها لِيُجْبَرَعلى تدريبِ ملامِحِهِ فيَحْيا ذاكَ الطِّفل فيهِ علّه يُصْبِحُ رَجُلاً حقيقياً خالياً مِن هشاشة الرِّجال .

(2)

إن آثرتِ المراوحة بالمكان لِيَحجزَ لكِ تذكرةً باسمِهِ في كلّ مَحَطةٍ تعبُرينها مَعَهُ ..مُرتدِيَةً عباءَتكِ النِّسائيَّة التي خلَّفتها لكِ الجَدَّة قبلَ رحيلِها .. اعلمي حينها أنَّ هناك مقصورة مِنْ عمرهِ لنْ تعبريها أبداً

فرُجولتهُ لمْ تُخلق لِتسْتتِرَ تحتَ سوادِ عباءَتكِ الموروثة حتى لو شغلتما معاً نفس القطار .

حينها إن التفتٍّ إلى الوراء ستفاجَأين بأُخرى مُنتصِبَة أمامه وقد خَلعَتْ عنها كلّ العباءاتِ في مقصورةٍ أضَعْتِ عمركِ تحلمين بركوبها إلى جانبه ..

لتكونَ بفطرةِ أنوثتها له خصماً و حليفاً..

ثورةً وهدنةً .. أنوثةً ورجولةً..

لِتملأَ فراغَ حضوركِ بعَبَثيَّةِ عبورها.

أشهِري سِلاحَ فخركِ واقتلي واحِداً منكِ ..

فأنتِ لنْ تستطيعي أنْ تكوني اثنين .. قبل أن تنتهي معه عبوراً.. أو مراوحةً في المكان .

متى يُحاورها دون الاكتراثِ لِبرجِهِ العاجيِّ .. ؟
متى يَقرأ ما حَفِظ َ مِنها وما حَفِظَتْ لهُ .. ؟
متى يَمتنُّ لبراءَتِها التي تطفو على لؤمِ مُعاشَرَتِهِ ..؟
لِصِدقِها الذي لم يَكتسِ بزَركشاتِ الموضَةِ النِّسائيَّةِ
لِلمُراوغَةِ أمامَ رجل .. !!!
هو الذي يَرفضُ النظرَ في عينيها كيلا يَقرَأ بها تلكَ
الطفلة .. أوتقرأ به ذاكَ الحبيب ..
كيلا ترى حيرة في عينيهِ .. ندماً .. أو أسفاً .
كيلا تفضحَ الخطوط في وَجهِهِ تكبُّرَ المُتعالي تسَلطاً
وكيلا تفضح َ شفاهها كم قبَّلتْ منه رجاءً.
أتعَبَتها أجوبة بقِيَتْ في حَلقِها لأسئِلةٍ لم يَطرَحها عليها
يوماً .. ولم يترك فراغاً وراءَها .. بل اكتفى بعلاماتِ
الاستفهامِ وانصرف ..
كم حَلمَتْ بأنْ يقرأها مِرارا ً ويكتبها ولو لِمَرَّةٍ واحدةٍ ..
فصُندوق بريدها بحاجَةٍ لِمَزيدٍ من التفاصيلِ .. وبينها وبينَ
الشَّكِّ حبيبٌ ترفضُ أنْ يتأذى بشظايا التَّخمين .
هيَ أمّيَّة الأحلام .. لكنها ليسَتْ أمّيَّة الحضور.. ليسَتْ
أمّيَّة الأدب ولا أمّيَّة العاطفة فقد زوَّدَتها الأمُّ بحِجابٍ يَقيها

ســوء الأدب .. الأب بحجــابٍ يَقيهــا العَواطِـف المزيَّفــة .. والجَـدَّة بحِجـابٍ يَقيهـا الأحـلام الـكبيرة بحضـرةِ رجـل .. ليغدو هو حلمها الوحيد .

وهي قطعَتْ عهداً لهم ألا تخونَ فـلا تحيد عن صدقٍ ولا تصْمت لحظـة حـق".. وهـا هـي أوّل مـا تخَلـتْ عنـهُ عهـداً برفقتِهِ .. بعدَ أنْ عَنوَنَ الصّمت أفكارهـا لتغدو أفكـارهُ المُسْبَقة هي مُحاورهُ الوحيد في حضرَتِها .

دَخَلتْ حياته بحَقيبَـةٍ صَغيرةٍ .. فمُنذُ أنْ أتـتْ إليـهِ وفرحهـا مُهيّأ للسَّفرِ .

فـتحَ الحقيبـة يومـاً فـرأى أثوابهـا ذاتهـا .. بألوانِهـا .. تفصيلاتِها .. ومقاساتِها ..

فصِّلتْ بغيرِ جُيوبٍ .. فقدْ أعَدَّتها للارتِداءِ لحظـة فـرح .. وهـي لا تحبُّ ادِّخار الفرح .. لذا لن تحتاجَ لِجُيوبِ الادِّخار .

شُدَّ عُنقها بياقةِ صدقٍ .. وخَصرها بزنـارِ وفـاءٍ .. حِذاؤها أنيق خفيف لعبورٍ رزين ...

رأى دَفتراً .. قلماً.. ومجموعة أوراق مبعثرة .

لكنه حينَ أصغى لِلحقيبةِ سَمِعَ صَوتاً... كصوتِ الوَحـدَةِ يَسْتجير .. كصوتِ الألمِ يَستغيث ..

لم يُفكـر كـثيراً فـإنْ عَلِـمَ مَصـدرهُ لـن يُـدرِكَ حـدودهُ ..
أغلـقَ الحقيبـة .. وَضَـعَها قـربَ البـابِ .. فهـو يعلـمُ أنَّ مـا
بـداخِلِها لـيسَ إلا ثوبـاً لا يحـترق .. قلبـاً لا يفنـى .. حلمـاً لا
يَتجاوز الحقيبة .. وصوتاً حدودهُ الكون .
هذه هـي بكلِّ ما أتته ُ بهِ وما تغادِرهُ معهُ..
فمَنْ يكون ..؟
هوَالحامِل مفـاتيح الفـردوس .. رجـل الأحـلام وسَيِّد الحُـبّ
المَشروط .

(٣)

ماذا تنتظرين .. مَن تنتظرينَ .. وإلى متى ..؟
اخلعي عنكِ عباءةَ الصَّلاة فقد قال لكِ يوماً بأنَّهُ الإلـه ...
وأنتِ قد سئمتِ السُّجود

بعدَ أنْ اِمتلأَ جَسَدها بأتربَةِ الذكرياتِ وغبار الأحلام تمتنُّ لِخُروجِها مِنْ كلِّ امتحاناتِ الحياة مُولِيَة ظهرها لكلِّ ما مَرَّتْ بهِ مِنْ ألوانٍ .. بغضِّ النظر عن صانِعيها لِتعلِنهُم عابري سَبيل .. دون أن تكبرَ يوماً واحداً .. دون أن يَكبرَ ذاكَ الطفل بها .. تلوَّث تلكَ البراءة .. يَرخص ذاكَ الصِّدق ..أو تنضُب تلكَ العاطِفة .

اليوم هي تمتنُّ لِرَصاصَةٍ قتلتهُ في قلبها قبلَ أن يوليَ ظهرهُ لِتكتبَهُ عابر عمر .

افترَقا إذاً .. بعَبَثِ مُراهِقين .. بعنادِ أنثيَين .. وعَنجَهيَّة رَجُلين .

بحُبِّهما الجارف وشوقِهما العارم .

فهل سيلتقيان بمَحَطةٍ ولو زمنَ وداع ..!!!

(٤)

لا تعبُري من هنا لأنّكِ سوف تتعثّرينَ به ..
سَيُسقِطكِ لتصبحي موازية لطريق عبوره
فيشكّل باستقامتكِ فوق جسدهِ زاوية فخره ..
وقبلَ أنْ تفكّري بالتَّحَوُّلِ عن عِشقِهِ لتعشقي ذاتكِ
تجدينه يغتالك خلسَة

بعد أنْ فَرَغَتْ منهُ تسمَعُ صوتاً بداخِلِها يَصرخُ في حنجرتِها لِلمَرَّةِ الأولى هو صوتها .. صوتها الذي استبدَلت به صَوته لِزمنٍ طويلٍ.

وراءَ طاولةٍ مُزدَحِمة بأوراقٍ وأسطرٍ مَلأتها شكوى وحنين .. ذكرى وافتقاد جَلسَتْ ..

لا شيءَ مِنَ الأمسِ تكتبه .. فاليوم تقرِّرُ أنْ تحيا بلغةٍ واحدةٍ هي لغتها ..

أنْ تكتبَ ذاتها لكي تتذكّر اسم عائِلة كانتْ عائلتها قبلَ أنْ تستبدِل بها اسم عائِلتِهِ في محطةِ سفرٍ.. برفقةِ

وَهمٍ لم يُجامِلها حتّى باحتِساءِ فنجان قهوة طَلبَتهُ لأجلِهِ مِرارا ً باستِراحاتِ عُمرٍ مُتتالِيَةٍ ..

لِيَدفعَ ثمَنَ قهوَتها .. يُهديها رَصاصَةً.. وينصرف .. بينما تدفعُ هي ثمن أحلامه الآتيه وتهديهِ كتاباً في المَحَطّةِ الأخيرةِ لحظةَ فراق .

لم تأسَفْ على عُمرٍ مَضى وهيَ تعِدُّ مِنْ خلالِهِ رجلاً لِهَجْرِها .. إنما أسِفتْ على كِتابٍ أهدَتهُ إيّاهُ لنْ يُجيدَ قراءَته مِنْ دونِها .

تجلسُ على كرسيِّ حنينِها .. تُمسِكُ أوَّل ورقة تطالها يدها .. وبأصابعَ مُرتعِشةٍ تتناوَلُ قلماً وترسمُ خطّاً وراءَ السّطورِ كأنها تُعْلِنُ نهايةَ مرحَلةٍ.

تفتح ورقة جديدة برَغبَةٍ كبيرَةٍ بالتمَدُّدِ فوقها بكثيرٍ مِنْ صِدْقِ رجولتِها وبعضٍ من خجَلِ أنوثتِها .. فيأخذها قلمها إلى حيثُ بَدَأَتِ الذاكِرَة بعُمقِ تفصيلاتِها وعنفِ أحداثها .

فأوّل ما يَخطر ببالها لِخيرِ بدايةِ محطةٍ جديدةٍ هو تجديد ذلكَ الثوب البالي الذي امتلأَ بالثقوبِ لِتَحيكَ

لنفسِها ثوباً جديداً ترسمُ مقاساته وحدها .. لِجَسَدٍ ما عادَ يَشعرُ سوى بالصَّقيعِ .

لكِنْ عليها أوَّلاً أنْ تُغلِقَ كلّ ذكرى مُظلِمة له في حياتِها لتكونَ قادِرَةً على فتحِ نافِذةٍ جديدةٍ عَلها تتسَلُّ عِبرها من أمسِها نحوَ غدِها ..

وأكثر ما يؤلِمها ألا يكونَ لهُ بهِ أيَّة محطةٍ.

فيوقِفها هذا الصِّراع لِتدركَ أنها غير قادِرَة على إمساكِ القلمِ بعد .. فمَعَ وجودِ هذه العاطِفة لن تستطيعَ الوصولَ إلى حدودِ التجرُّدِ .

تتصَرفُ مُغلِقةً وراءَها أبواباً على لغةٍ تملؤها لكنها لازالتْ تشعرُ بأنها ليسَتْ لغتها .. ولا تريدُ ترجَمَتها بأمّيَّةِ حُرّيَّتِها ...

تغادِرُ أمَلاً بالتعرُّفِ على بعضٍ منها مُحْتفِظةً لذاكرتِها بتذكرةِ سفرٍ.. لتنطلِقَ نحوَ مَحَطةٍ جديدةٍ تعِدُّ مِنْ خلالِها اِمرأةً في كِتابٍ .

فارغة من كلِّ شيءٍ مَضَتْ .. فلمْ تمتلِئ يوماً إلا بهِ

كم أحَبَّتْ هُطولَ المَطرِ قربه ..!.كم أحبَّتْ سنابل القمحِ .. ! .. ورائِحَة التراب .

ها هي تسيرُ تحتَ المطرِ .. تحَدِّقُ بحقولِ القمحِ .. وتشتمُّ رائحةَ الترابِ إنما من دونه ..

دون أن يقولَ لها بأنَّ المطر رحمة .. سنابل القمح خير .. ورائحة التراب شهيَّة كرائِحَةِ الخبزِ.

كثيراً ما مَشَتْ قربهُ ولم تتعَبْ .. فلماذا يُعييها المشي من دونهِ اليوم ..؟

أرادتْ أنْ تقصد مَكاناً بعيداً عن كلِّ البشرِ الذينَ يَعبرونها بعيونِ الدّهشةِ .. وكأنَّ دموعها وهي أنثى ليستْ سوى أداة جُرم وَحدتها ..

دَخَلَتْ مطعماً فاخِراً أمَلاً بأنْ يكونَ الأغنياء قد وَضَعوا عدساتِ رُقيّهم وهم مُنشغلونَ كلّ بنديمِهِ فلا يكترثوا لدموعِها .. وللكرسيِّ الذي سيبقى فارغاً على طاولةٍ نُسِّقَتْ لشخصين ..

أخرجَتْ دفتراً وقلماً مِنْ حقيبةِ يدها لا لتكتبَ .. بل لتجدَ سبباً تنحني لأجلِهِ فتداري دموعها عن أنظارِ مَنْ حولها.

ألهذا الحدّ باتَ الدّمع شاهدَ فضيحة لألمِ أنثى ....! .

يومها هاتفها قريبٌ فحدَّثتهُ مُحْتجَّة على نظرةِ مجتمعٍ يَسلبُ الأنثى حقّ البكاءِ في شارعٍ.. مطعمٍ.. أو في أيّ مكان عام ..

كانتْ تودُّ أنْ تلقي أسباب خيبتها على مجتمعٍ بأكملهِ ..

فرَدَّ عليها مُستغرِباً : أيّ حقّ تتحدَّثينَ عنهُ بالبكاءِ ..

وأنتِ فتاة في عمرِ حقّ المطالبة بالرَّقصِ والجنون .. !

كانَ يَوَدُّ مواساتها لكنه دون أنْ يقصدَ كان يُنير على جراحِها .. فتنسى سيلَ دمعِ العينِ لتغرقَ بنزيفِ دمِ القلبِ .. وهي تزدادُ صمتاً كي لا تبوحَ بخيبَتِها في زمنٍ يُحَتِّمُ سعادةَ المرأة إن هي بعُهدَةِ رَجُل ..

بماذا تبوحُ وكيفَ تطلبُ منهُ أنْ يشْهَدَ على قهرها وهو رجل ولنْ ينطلقَ بالحوار معها إلا مِنْ كونها أنثى ..

رغمَ إفصاحِهِ عن حقها بالرّقصِ.. وحتى الجنون ..

هذا لأنها ليست أنثاهُ طبعاً .

فهي تعلمُ تماماً نقاط اختلافه مع زوجتِهِ التى تكبرها بحسرةٍ .. وتصغرهُ بخيانةٍ .

بَـدَأتْ تـدعو الـذكرياتِ واحـدةً تلـوَ الأخـرى لِتجالِسَـها وحـدتها .. حالِمَـة بـإفراغِ جعبـةِ ألمهـا .. وإذ بهـا تزيـدُ مـلء كأسها مَراراً..

فماذا تكتبُ وقدْ أضاعَتْ روحها على صفحاتِ عمرهِ ..؟

قرَّرَتْ أنْ تسيرَ في طريقٍ لِتفرَغَ مِمّا هو عالِق بها منهُ وإذا بهِ يُحيطُ بها .

رَكبَتْ سيّارة أجرة لِتتجِهَ نحوَ منتدىً أدبيّ .. قطعَتْ الطريقَ بسرعةِ سيّارةٍ ظناً منها أنَّ سرعةَ العبورِ سَتتكفلُ باختصار ذكرى طريق لم تسِرْ بهِ إلا معهُ لِتجلسَ على طاولةٍ جَمَعَتهُما سابقاً بحواراتٍ هامس وكثيراً بتبادل الأفكارِ على قصاصاتٍ من الورقِ احتراماً لهيبةِ المكان ..

أتتْ مُسرعَة هاربة من ذكراه .. لِتعَنونَ عمرها الآتِي من دونه على طاولةٍ لم تجلسْ عليها إلا برفقتهِ.

تراها هربَتْ منهُ إلى هناك مُتقصِّدة استثارةَ الحنينِ بمكانٍ علهُ يُهديها إيّاهُ مقنعاً بمصادفةٍ .. لتتراجعَ قبل أن تبدأ بقتلهِ على أوراقِها إلى الأبد .. !!

تفتحُ دفترَها ليخطَّ الليل أوَّل سطرِ عتمةٍ على بياضِ أوراقها معلناً انقضاءَ النهار بحلولِهِ .

فـإن كـانَ نهارهـا   قـد امـتلأ بـه فمـا هـي فاعلـة بليلِهـا الطويل من دونهِ .. ؟

(٥)

إن لم يُدرك برجولتهِ سوى قتلكِ ليُعلنَ البطولة
فلتُدركي بأنوثتكِ أنك لم تُخلقي من فراغٍ لِيَشغَلَ جسدكِ وظيفةَ الحاوية لقذاراتِ فحولتهِ .. وفكرك وظيفةَ التّرجمان للغةِ رجولتهِ ..
بينما يقصُّ على أُخرى حكايتهُ معكِ شاغلاً وظيفةَ البطل .

ها هي تعودُ إلى منزلٍ لازالتْ رائحةُ الألمِ تتغلغَلُ بأثاثهِ .. تقفُ أمامَ فراشِهِ مُجَدَّداً تستدعي الذكريات ..
وحيدة تجلسُ في ركنٍ مظلمٍ تستعيدُ مُروره قربها مُتجَهِّمَ الوَجهِ .. لِيُعلِنَ الباب إغلاقاً وراءه وَحدتها كلّ ليلةٍ تاركاً طيفاً منهُ يُداعِبُ خصلاتِ شعرها في غيابهِ .. يحاكي أنوثةً لمْ يَكترثْ حضوره بها .. لتقضي الليل تُعَدِّلُ في زينتِها بحثاً عنِ الأجملِ لعينيهِ ريثما يعودُ .
تجلِسُ في فِراشِهِ مُعانِقةً بوسادَتِهِ رائِحةَ عطرهِ .. أنفاسه .. وحتى عرقه .. لتغفو مع أحلامِها بقدومِهِ رجلها .

قال لها يوماً : أنتِ سَيِّدَةُ قلبي وفِراشي فأريني كيف توجِّهينَ طاقتي للحنين .. ؟

كانَ امتحاناً صعباً .. ها هي تحمِلُ مسؤوليَّةَ رجولته في فِراشٍ لِترتدي مَشاعِرها أمامَهُ فتنجح في مهمَّةٍ نسِيَتْ من خلالِها أنْ ترتديَ جسداً ككلِّ النساء ..

وبعدَ أنْ يوليَ ظهرَهُ لها منهك الحنين تعانِقُ غفوَتهُ من الخلفِ لِتشتمَّ رائِحَةً مَلأتْ روحها تكفيها للسَّهرعلى ذكرى عبور مشاعرها بجسدِهِ .. وعبور رجولته بجسدِها فتبدأ بجمع حواسها واحدة تلوَ الأخرى .. من تحتِ السَّرير .. من جيبِ قميصِهِ .. من بين أهدابِهِ .. و بين شفتيه .. التفَّ بَعضها حولَ أصابعِ يَديهِ .. وبعضها حولَ خِصيَتيه .. تجمَعها شمّاً دون تقبيل ..

بهدوءٍ .. برزانةٍ .. بصَمْتٍ .. وبألم .

باتتِ الحواسُ تستغيث .. تستجير .. تطالِبُ بروحِها مثواها الأخير ..

جَمَعَتها قسراً .. جَمَعَتها قهراً .. جَمَعَتها خيبَةً .

هي طفلة الأمسِ .. طفلة اليومِ والغدِ ..

كانـتْ تنثرهـا برفـقٍ حـولَ قامتـه .. وكـان يدوسـها بكبرياءِ المُتعالي .. ظنها لا تموت فأخطأ ظنه اليوم .

اليوم وبعدَ عشرة أعياد لِلعُشّاقِ.. عشرة أعياد لزواجِهما .. لفظـتْ حواسـها أنفاسـها الأخـيرة خلـفَ ظهـرهِ بعـدَ أنْ مارَسَـتْ عادَتها السِّـريّة شمّـاً مـع رائحـةِ عرقـهِ.. بعـد أن داعَبَتْ شعرَهُ دونَ لمسٍ.. بعد أن تملَملتْ بين أصابعِ يَديهِ..

أخيراً ارتعشتْ رعشـةَ الموتِ الأخيرة تحـتَ قدميـهِ.. لِتصْـرَخَ صمتاً في سِرِّها :

((ارقصي حواسيَ اليوم .. ارقصي فقدكِ الأهمّ .. فقدكِ الأعظـم وعـانقيني .. عـانقيني بلحظـةِ الـوداع .. عـانقيني بلحظةِ رعشتي السِّريَّة على أنقاضِ عشقٍ وَهمِيٍّ ..

لِننتفِضَ بآنٍ معاً .. نصرخَ معاً .. ونخمدَ معاً .. فنكتبَ معاً قِصّـةَ عشـرة أعـوام برفقـةِ رجـلٍ .. بصـحبةِ وهـمٍ .. كـان حلماً جميلاً .

أتـى بضـربَةٍ صـاعقة للجنـونِ ورَحَـلَ إثـرَ نوبـاتٍ مُتتالِيَـة لِلظنونِ.

ابكـي سَـيِّدَةَ الفقـدِ .. ابكـي سـيّدة الأحـلام .. ابكـي عشقاً خرافيَّاً لأجلِهِ تحيين .. ابكي حبيباً فرَغَ منكِ فمَنْ

تعشقين .. واعذرني حبيبي .. اعذرني إذ أدعوكَ حبيبي .. فأنا لا زلتُ بحاجَةٍ لِلحُبِّ أنتمي إليهِ)).

لم يَكنْ يُريدها سيِّدة فِراشهِ ليكونَ سيِّد أنوثتها ليلاً إنما أرادَ تمريرالكرةِ إليها فقط ليرى مهارةَ رياضتِها في الطاعَةِ عندَ حدودِ فِراشٍ اعتادَتِ الأنثى بهِ تكريم نفسها بغنجٍ ودلالٍ..

لكنها بمهارةِ عاشقٍ مَرَّرَتْ كرَتهُ نحوَها لِيُسَجِّلَ هدفَ الرُّجولةِ بفنِّ مُحاوَرَةِ لاعِبَين كيلا تبقى بحَضْرَتِهِ مَرمىً لم يُعَدّ إلا لضرباتِ الجَّزاء .

ولم يَهْدَأ .. بل انتفضَ معَ بُزوغِ الفجرِ أمامَ حكمِ ضميرهِ على طاعتِها .. مُتهماً إيّاها باسْتِغبائِهِ ..

مُسَمِّياً ابتسامتها الصّباحية جواز سفر نحوَ رجولته إذ تسْتدْرجهُ في فِراشٍ لِيُكمِلَ نهارَهُ مقنعاً أمامَ طاعتِها غير المحدودة .

(٦)

إنْ اكتفيتَ بعشقِهِ وأنتِ تدوسينَ ذاتكِ أمامَهُ حُبّاً دمَّركِ عَلناً على مرأى أناكِ ..

ليندبَ بعدَ سقوطكِ جثمانَ الأمانةِ بكِ .. ويكتب عن حياتِكما معاً قصَّةً قصيرةً مُنتقاةً مِنْ سُطورِ كتابِكِ لِيُوَقِّعَها باسمِهِ .. مُستفِزّاً صمتك الأبديّ وأناكِ المُخَضَّبَةِ أمامه بدماءِ اعتذاراتِكِ ..

لتكوني بكلمَةِ أسَفِكِ قد لقَّنتِ سِلاحَ كذِبه دونَ أنْ تدري .

هوذا صباح جديد وها هي تقضي نهارها تسبُّ تعاليمَ الجدَّةِ .. هي مَن لمَّعَ أقنعته مِراراً .. مَن ارتدى عباءة مُسْتهْلكةً ..

قَضَتْ عمرها تبحثُ عن مساحةِ حرّيتها وراءَ جدرانِهِ التي كلما رَفعَها ازدادَتْ فخراً بأنه سندها الوحيد ..

فماذا تندب به اليوم بعد الرَّحيل ..؟ .

وتستمِرُّ بمُجالَسَةِ الذكرياتِ .. فلا شيءَ تكتبه ..

إذ لا زالتْ ممتلِئةً بهِ ولو ألماً ..

قال لها يوماً : لا أطيقُ النظرَ إلى وجهكِ ..

حينَ سَألتهُ عن سببِ تجهُّم وجههِ .. فماذا فعلتْ .. ؟.

ابتلعَتْ إهانتهُ لِتَبتلِعَ معها كلّ ما توَقفَ في حنجرتِها مِنْ ردودٍ كيلا تتورَّط أمامه بكلمةٍ تُسقِطها حيثُ حفرَ لها .. أمامَ مرآةٍ تذكرها بأنها أنثى أطالتِ الوقوف لِتلتفَّ بعباءتِها وتتحني أمام (سي السّيد) ظناً منها أنه قد يكون تحت تأثير تأنيب الضَّمير لإهانتها ..

وكيلا تتركَ له مجالاً للاعتذار راحتْ تشرحُ كم تحبّه رغم صلابتهِ .. لكنه لا زالَ مُصِرّاً على أنَّ جلدَها المَوروثِ طيباً ليس سوى قناع ترتديهِ أمامَ غضبهِ ليَثْبُتَ هدوؤها انتصاراً على هزيمةِ ضميرهِ .

هي التي اعتادَتِ الصَّمتَ أمامَ انفعالاتِهِ المُتتاليةِ كمْ مِن نفسٍ عميقٍ ستأخذُ لتواصلَ الصَّمتَ على إهانتِها عَمْداً وهو يساويها بجدارٍ قائلاً :

أنت لِي .. أبنيكِ حينَ أشاء وأهدمك متى أشاء

فلا تفاخري أمامي بكبرياءِ حضوركِ .

هـي الـتي جَمَعَـتْ كـلَّ مـا وَرِثـتْ .. وكـلّ مـا دَرَّبَـتْ مِـنْ كبرياءٍ لِتلقيهم تحتَ قدميهِ بكلمةِ أسفٍ أمامَ خطأ لم ترتكبهُ يوماً.. فقط لِتعَزِّزَ ذخيرةَ رجولتهِ وإذا به يُفجِّرها بوطنٍ ليسَ إلا وطنهُ .. ولم يكن إلا هي .

لِيُعْلِنَ تاريخَ استقلاله عنها يوم ميلادهِ الجديد .. فلِمَن يقدّمُ امتنانه اليوم .. بعدَ أنْ أتعَبَهُ عتاد التِّرحال ..

هو المُهَجَّر بذخيرةٍ بلا وطن ..؟

اليوم وقد قرَّرَتِ العبور إلى غدِها من دونِهِ فلمْ تعبر سوى ذاكرتها معه في طريقٍ .. منتدى.. فراشٍ.. ونهارٍ مليءٍ بالصَّخبِ ..

أيّ رجلٍ هو ليبقى بداخِلِها رغمَ لؤمِ انسحابه ..! .

وأيّة امرأةٍ هي لتفرَغَ مِنْ كلّ شيءٍ إلا منهُ..! .

هي التي أحَبّته كلّ الحبّ .. بكلّ عواطِفِها دونَ أنْ يعلمَ بأنَّ هذا قلبها النقيّ بالفطرةِ .

نظفتْ أحذيتهُ وأقنعتهُ بآنٍ معاً .

غادَرَ قبلَ أنْ يَخبرَ كم عانقتْ وسادته لحظةَ غياب .. كم بَكتْ عليها .. وكم تنشقتْ رائحةَ عطرهِ وعرقهِ ..

خلعَ أمامَها مُنتصِبَ الرُّجولةِ آخرَ قناعٍ ليقولَ : أكرَهُ ألاعيبَ النساءِ .

هو الذي طالبَها بأكثرِ من الأنوثةِ فكانتْ أخاهُ ..

أكثر من الأخوَّةِ فكانتْ أمّهُ ..

أكثر من الأمومَةِ فأصبَحَتْ وطنه..

ماذا تراهُ يحتاجُ اليوم ليَستطيعَ مواصلة العيشِ مِنْ دونها...؟.

وما الذي أبقاهُ منها لتواصِلَ العيشَ لأجلِهِ .. ! .

لتبدَأ بكتابٍ جديدٍ.. بأمَلٍ جديدٍ.. وحلمٍ جديدٍ..

لتكتبَ بعضاً مِنها وإذا بها لم تكتبْ سواهُ ..

(٧)

بعدَ أنْ أدْرَكَتِ الأنوثة بكِ أنَّ الرُّجولة ليسَتْ إلاّ سِلاحاً وهميّاً دفعْتِ عمركِ تفنُّناً لِصُنعِ ذخيرته، وإذا بهِ يقتلك .. فالرُّجولة كرم .. شهامة .. ونبل .. وقد تعَدَّيتِ مَعَهُ صفات الرُّجولةِ .. وأنتِ لسْتِ هوَ.

اليوم لأوَّل مرَّةٍ تخطّ بقلمِ الرَّصاصِ حروفاً رَمادِيَّةً على بياضِ صفحاتِها .. فتكتب على عجلٍ :

((ما عُدتُ قادرةً على التفكير بجمع ما رَمَينا أرضاً .. ولملمة ما بعثرنا من مشاعر فاضَتْ بنا فاستهزأنا بها حتى سَخِرَتْ منا لحظة فراق ..

ولا عدتُ مُدمِنَةً على نسجِ خيوطٍ لأشبكَ كما العنكبوتِ قِصص حُبٍّ هلاميَّة بعد أن افترقنا .

أقول افترقنا .. ما دُمتَ تغادِرُ ولم تأخذ مني شيئاً سوى غربة ولم تبقِ لي منك شيئاً سوى جدل يسامِرُ وحدتي ..

لأستلَّ لغَتي في زمنٍ مُنِعَ فيهِ التَّجوُّل إلا للأقلام ..
فأكتب خشيةَ أن أفقدَ كلماتٍ شمسيَّة تكتبُ .. ولا تُلفظ..اعذرني رفيقي إذ لم أكن أنا حَمَّالة الأسى التي وعدتَ نفسك بها يوماً..والتي بَنَتْ أسواراً على عهدها كي لا يَفِرَّ منها فتنكثِ العهد..ولنْ أكونَ لكَ شمساً تلذعُ حروقاً بجِلدِكَ أحدَثها مَن عَبَرَ قبلي.
ولا طيباً يحاورُ الحنين بداخلِكَ فأغدو سَذاجَةَ وسُخفَ أنثى .. وأنتَ رجل في حالةِ غيابٍ مستمرٍّ .. لحبيبَةٍ مُغيَّبَةٍ إلى حين .. أو إلى مالا نهاية ..
فما عادَ لِلحُبِّ مع قلبي مَوعد أخشى التأخُّرَ عنهُ ..
بعد أن تحطَّمَ قلبي حتى ما عاد قادراً على لملمةِ بقاياكَ المُبَعثَرة أمامي .
أنتَ أيُّها الحلم الذي حضرَ مُحْضِراً معهُ كلّ الفرحِ .. الأمل .. الفخرِ.. الحبِّ وكلّ أماني الطفولةِ و الشَّبابِ .. في أحضانِكَ أشْرَقَتِ الأحلام أكثرَ مِمّا حلمَتْ فرَفعَتْ رأسها وفتحَتْ صَدرَها لِلعَلنِ.. علَّهُمْ يَقرَؤونَ اسمكَ يُعَنونُ عمرها .. واكتفتْ ..

وبفضلِ مؤونتها المَوروثةِ .. المُكتسَبَةِ .. والمُدَرَّبَةِ أبْطَلتْ مَفعولَ فِخاخٍ نُصبِتْ في طريقِها إليكَ لِتترُكَ بَصْمَةَ صدق .. براءة .. طفولة .. وحبّ في كلِّ مكانٍ حَلّتْ به .. تاركةً وراءَها طيفاً من حسنِ المُعاشَرَةِ ..

هي التي لم تتوقفْ عن إنتاجِ الحبِّ ..الأمَلِ .. والأمانِ لِتبُثّهُم بكَ بأمانةِ أنثى على عمرِ رجلٍ..

هذه أناها التي لمْ تشِخْ .. بكلّ ما أحَبَّتْ .. كلّ مَن أَحَبَّتْ .. كلّ ما مَرَّتْ به وما مَرَّ بها ..

بطفولتِها التي تعيدُكَ إلى قلبِها بعدَ كلّ مَحطّةِ خيبةٍ .. ببَراءَتِها التي لمْ تتعَدَّ بكَ حلم الأبوَّةِ لتغدو كلّ الدّنيا .. بعاطفتِها التي تدومُ لِتُرَوِّجَ لبقائِها على قيدِ الحياةِ .. أو على قيدِ العطاء.

(٨)

ها هوَالعمرُ يشارفُ على الخمسين من الخيبةِ به ..
لا أحد يضعُ يدهُ على كتفِهِ ليُؤكدَ حضورَهُ ..
لقد نَبَتَ زرعهُ لكنَّ الزمنَ لم يتركَ لهُ وقتاً لِيَجْني
بعدَ أن سَقاهُ عمرَ النُّضوجِ حتى فرغَ ..
فيَمْلأ كأسَهُ خمْراً لِيَبتلِعَ معهُ غدر الزمنِ .. وَوَحدَته في مُنتصَفِ العُمْر .
كم هو بحاجةٍ إليها اليوم .. ؟
لتباغِتِه بابتِلاعِ خيبته واعتذاراته .. حتى ابتلاع العمر بحاجةٍ إلى نديمٍ..
كانتْ نديماً لِكأسِ عُمرٍ مَلأهُ لها مِراراً فابْتلَعَتهُ بغبَّةٍ واحدةٍ كي لا تسْمَحَ له بتذوُّقِ مَرارهِ ..
وحيداً اليوم يعودُ بذاكرتِهِ إليها لِيَبْتلِعَ الوحدَةَ والخيبَةَ معاً .. يا لفقرِ رجولتهِ في غيابها .. يا لَمرارةِ كأسِهِ .. وخيبة أحلامهِ ..
ها هي حقولهُ المُزْهِرَة تنبِّئ بعُمرٍ خصْبٍ.. خيرٍ وافرٍ .. و رزقٍ كثيرٍ..

مالهُ وخصوبَة العُمْرِ.. وَفر الخيرِ.. وكثرَة الرِّزقِ..!
إنْ لمْ يَكنْ قادِراً على الانتِصابِ بقامَتِهِ ..
بعدَ أنْ حَنَتِ الوحدة طموحاته وغيَّرَتْ تسَلسُلَ أولوياته لِتغدو هي حلمه الوحيد وطموحه الأوَّل .
اليوم يتركُ مقوَدَهُ للمَرةِ الأولى ليرى الحياة َمِنْ مكانِها .. يعودُ لِزمنٍ كانَ زمنهُ فرَفضَ العيشَ بهِ .. ليتركها تخطهُ ذكرى عمرها على كتابٍ كم اشتهَتْ أنْ يَعْبرَهُ اسمه بغير مَرارٍ..
يَرْفعُ كأسهُ وحيداً بيدٍ مُرْتجِفةٍ لِيَشْرَبَ نخبها .. إنما دون حضورِها ..
بينما هيَ بِفسْتانٍ أبيض تقفُ على منبرٍ تُزَفُّ إلى حلمِها بكتابٍ مُوَقعٍ باسمِها .. لِتسْقطَ فاقِدَةً الوعيَ إِثرَ سماعِ صَيْحاتِ الحضورِ مُشَجِّعَةً نجاحها .
أمامَ صراخِ غضبِهِ لمْلَمَتْ حزنها وتماسَكتْ مِراراً كي لا تفقدَ وعيها فتصحوَ دونَ أنْ تجدَهُ قربها .. فتفقدَ بفقدانِ وعيها رزانة حضور حكمتها لحظةَ ألمٍ..

واليـوم تسـقطُ عـاجزة عـن لملمـةِ بقايـا ثقتهـا بنفسِـها أمـامَ صَـيحاتِ الفخـرِ لِتسْـتقرَّ في مَشـفى يشـهدُ مَحَطتهـا الأهـمّ بعد صَخَبِ حياتها بين نسيان .. ذكرى .. وأمَل .

لم تكن تمتلِكُ مالاً لِدَفعِ ثمنِ غيبوبةٍ إثرَ فرحٍ مُفاجئ لكـنَّ مَـنْ اختـارَ لهـا هـذا المَشْـفى الخـاصّ جـداً كـانَ أكيداً بأنه قـادر علـى إنفـاقِ حتـى عمـرهِ الآتِـي لأجـلِ أنْ تحيا ...

لمْ تشتهِ الموت حينها .. ولا حتى الحياة ..

لكنها اشتهتْ أنْ تطولَ غيبوبتها على الأقلّ لِتَعبُـرَ مسـاحة الفخرِ التي تحيطُ بهـا قبلَ أنْ تبدأ بأسْطُرِ امتِنـانٍ لـزمنٍ قادمٍ.. أو لرجلٍ قادم .

تفـتحُ عينيهـا .. تجـولُ بنظرِهـا الغرفـة لِتتعَـرَّفَ علـى أيّـةِ ملامـح تُشـعِرها أنهـا بـينَ الأحيـاءِ .. لِيَسْـتقِرَّ نظرهـا علـى غريبٍ ينطقُ بثقةٍ :

لن تموتَ .. هذا الصَّوت سَيَسْتمِرّ .. أبعِدوا الصَّحافة

كانَ يَتكلمُ وكأنهُ يَبُثّ في أذنِها صوتَ الحياةِ..

بعنفوان الشَّبابِ .. وثقةِ الكهولِ .

بينَ غيبوبةٍ وصَحْوٍ كانتْ تسبرُ ملامحه ُ علها تتعَرَّفُ إليه .. فمَنْ يكونُ هذا الناطق باسمِ الحياةِ لأجلِها .. وكأنه قدرها . ؟

رجلٌ طويلُ القامةِ مُمْتلئ .. ذو وسامةٍ مُلفِتة وأناقةٍ مَدروسَة .. يمدُّ بيمينِهِ بطاقتهُ الشَّخصيَّة للطَّبيبِ دونَ أن يرفعَ نظره إليهِ .. فقدْ اسْتقرَّ نظره في وجهِها وكأنه أضاعَ شيئاً أهمّ بينَ رَعشةِ شفتيها و رَقرَقةِ عينيها لحظةَ صَحْوٍ .. واضِعاً يده اليُسرى على جبينِها ..

يُعيدُ البطاقةَ إلى جيبِ قميصِهِ قبلَ أنْ يتأكدَ بأنَّ الطبيب قد قرأها ..

تلمْلِمُ أشلاءَ صوتٍ من حنجرَتِها .. لم تكنْ أكيدة بأنهُ صوتها لكنها تنطقُ بهِ لِتمْلأَ ذاكَ الفراغ المنقط بينهما قبلَ أنْ يُسْألَ عن درجةِ صِلتهِ بها فتتورَّط بجوابهِ .. ناطقةً بأوَّلِ سطرٍ للصَّحافةِ بصوتٍ متقطّعٍ يُعلنُ اسمها الثلاثيّ .. واضِعَة وراءَه بعدَ نفسٍ عميقٍ اسم عائلتكَ ..

لِيُدرِكَ ذلك الغريب أنها تنتمي لعائلةِ رجلٍ ..

فيتراجع قبلَ أنْ يَدفعَ ثمنَ صَحْوٍ لأجلِها .. فتكمل عمرها دافعةً ثمنَ امتنانٍ لأجلِهِ .

بذكاءِ عاشقٍ يَفهمُ لغتها المُتقطِّعةِ ألماً..
باحْتِرامِ مُثقفٍ يرفعُ يده عن جبينِها خَجَلاً ..
وبإصرارِ مَسْؤولٍ يَتوَجَّهُ نحوَ إدارة المُستشفى مُشهراً بطاقته .. تسديد حسابٍ .. وينصرف ...
بعدَ غيبوبةٍ مُباغِتةٍ لحظةَ فخرٍ قصيرةٍ تصحوعلى صوت الطبيبِ .. وحيداً يقفُ قربها .. يَزفّ إليها بُشرى عافيتها من انهيارٍ عَصَبيٍّ ..
يَجوبُ نظرها الغرفة كأنها تبحثُ عن أحدٍ ما .. لا أحدَ تسألُ عنهُ لأنها لا تعلم إنْ كانَ هناكَ مَن سَألَ عنها .. وأكثر ما تخشاهُ مِن صَحْوِها هوَ أنْ تُستنطَقَ عن عائلةٍ انتمَتْ إليها لحظةَ هروبٍ فقط لأنها كانتْ بحاجَةٍ لأيِّ انتماء ..
وقبلَ أنْ تنطُقَ بأسَفٍ يُسوِّغ كذباً لا يليقُ بها يأتيها أسَفُ الطبيبِ لعدمِ السَّماح لأحدٍ بالدُّخولِ إليها .
وبلحظةِ استِدارَتهِ مُعْلِناً انصرافه يَغمِز مُشيراً إلى جُدران الغرفةِ قائِلاً : تكفي الورودُ لِتؤكدَ أهميَّة زوّاركِ ولهفة الكثيرين أقيمي حِواراً معَ الوَرْدِ ريثما أنهي جَولتي .. عَلها تحاكي لغتكِ أكثر مِن طبيبٍ مُعالجٍ .

لم تكُـنْ بحاجَـةٍ لِتسـألَ الـورود كـي تسـتنطِقها بحـوارٍ .. يَبـوحُ الـورد بـأدَقِّ التفاصيل لِكاتِبـةٍ دونَ أنْ تُكلّفَ عنـاءَ التخمينِ .

كانـتْ سِـلالاً باهِظَـة الأناقـةِ مُمْتلِئـة بـالأوراقِ الخضـراءِ النضِـرَةِ .. نُسِّـقتْ بـذوقٍ مَـدْروسٍ حـولَ وردةٍ بيضـاءَ بعودِها الفارغِ .. قطِفَتْ قبلَ نضوجِها بحـين لِتوحي ببراءةِ ما قبلَ البُلوغِ .. وقبلَ أنْ تفقـدَ بَعضـاً مِنْ عبيرِها المَخـزونِ داخل تويجاتها النديَّةِ .

باحَتِ الورودُ سريعاً بكلِّ ما حَمَلتْ مِنْ أسرارِ غرابتها .. نضرَتها .. ندرَتها .. وغلاء ثمَنها .

هـي الـتي لم تـدَّخِرْ يومـاً سـوى الكلمـاتِ .. كـم عليهـا أن تكتبَ لِتدفعَ ثمن فرحها بكـلِّ وردةٍ حَمَلتها سلة أنيقة لِتخفِّفَ ألمها وتبَـدِّدَ وَحدَتها ..؟ هـوَ الـذي تربَّعَ عرشـاً بـينَ النسـاء دونَ مطـاردة .. بَلْ بنَصْبِ فِخـاخِ الرُّجولـة لِيَنتقـي مِنْ صَيدِهِ نقيضه فيغدو الرَّجل الحلم ..

(٩)

ها هي أرادَ أن يَتزوَّجَ أمَّهُ التي لمْ تَلِدْهُ فكانتْ هي .. ابنته التي لم يُحْبِلْ بها امرأةً فكانتْ هيَ .. يُحاول اليوم أن يُخلِعَها ثوبَ أمومَتِها نحوَهُ .. وبُنوَّتِها .. إلى حين لقائِها في مَحَطةٍ قد تكونُ الأخيرة..

لِيُفاجَأَ بأنها تلكَ التي تورَّطَ بحُبِّها وهو يقفُ أمامَ مِرآتِهِ لِيَبْحَثَ عن صورَتِها .. وإذا بها تنطقُ بصدى صوتِهِ .. لِيُدرِكَ أنها قابعة في ثنايا روحِهِ ..الجَريدَة بينَ يَدَيهِ .. لِتُباغِتَ نِسيانه بحُروفِ إسمها الثلاثيّ يُعَنوِن صَفحةً لم تخلُ من اسمِ عائِلتهِ ..ليسَ اسم عائلته ما اِسْتوقفهُ لحظةَ ذهول .. ولا حتى اسمها .. بَلْ صورة لِجبينِها تحتَ يَدٍ تمسَحُ عَرَقها المُتصبِّب ألما.

توَقفَ عندَ قامَةٍ مُنحَنيَةٍ فوقَ سَريرِها أكثر ما توَقفَ عندَ مَلامحِ ألمها .. لم يكن يَمتلِكُ مِنَ الوَقتِ ما يَكفيهِ لِقراءَةِ تفاصيل خبر فقد أصْبَحَ وَراءَ مِقودِ سَيّارَتِهِ وهو يَرتدي سترته بيدٍ واحدةٍ ويُمسِكُ بالأخرى الجريدة .

بسُرعَةٍ جُنونيَّةٍ يَقودُ وكأنه أمامَ سَبَقٍ صَحَفيٍّ لنْ يَدَعهُ لِغيرهِ.

أمامَ مدخلِ مَشفى وقفَ كالكثيرين مُنتظِراً إذناً بالدُّخول .. يُعيدهُ الذهول إلى الجريدةِ علَّه يَجدُ تفسيراً أو تكذيباً لِخبَرٍ بدا الأبعد عنه رُغمَ اِنتمائِهِ لِعائِلتِهِ دون غيرها .

لن يَمضيَ الوقت إلا بَطيئاً..

لن يَمضيَ إلا بغيرِ ما يشاء وهو يقفُ كالكثيرينَ ينتظرُ إذناً بالدُّخولِ..

كانَ على وَشكِ أنْ يقولَ : أنا زوجها

لكنه يُفَضِّلُ كعادَتِهِ أنْ يقولَ : هيَ زوجَتي ..

وحينَها لن يَكونَ مَعفيّاً مِنَ الإجابَةِ عَنِ السّؤالِ : ومَنْ أنت ..؟..!!!!!

كانتْ تنتمي إليهِ عُمراً فهَلْ أتى بهَلعٍ فضوله لينتمي إليها اليوم .. ؟ .

دونَ أن يكونَ لاسمِهِ أيّة دَلالةٍ في حَضْرَتِها إلا كونه كتِبَ وراء اسمها .

بينما هو في غمرةِ حَيْرَتِهِ يَلتفُّ بخَبَرٍ لا يُدركُ منه سوى دَهشته .. تصِلُ سَيّارة سَوداء بأصفارٍ مُتتالِيَةٍ ..

قرَأها كنقاطِ كِتاباتِها على سُطورٍ فارغةٍ وراءَ جملةٍ مُباغِتَةٍ .. لِتترُكَ للقارئ فسحةً يَملؤها مِن وحيِ ثقافتهِ وحالتهِ النفسيَّة لحظة قراءة .

أمامَ مَدْخَلِ مُستشفى مُشَدَّد الحِراسةِ على أسرارِ وجودها بداخِلِهِ .. و ثِقلِ عُبورِ غريبٍ نحوَها .. يُغلِقُ الجريدةَ ليشعُرَ فجأةً بأنه لا أحد .. وينصرف .

كان وجودُ ذلك الغريب قربها في صورةٍ يثيرُ فضول جَهْلِهِ .. قبلَ أنْ يَتحَوَّلَ لإثارةِ غيرة حواسه بتلكَ الوردة البيضاء التي كان يحملها بيَدِهِ دونَ الاِكتراثِ لِوَضعِهِ الاِجتِماعيّ أمامَ رجالِ الشّرطة .. أطِبّاء المَشفى .. والعامِلينَ بها .

يحارُ في ترتيبِ الأفكارِ بعدَ أنْ سَقطَتْ كلّ العناوين منه بلحظةٍ خَجِلَ بها السّؤال .. هوَ الذي لم يخلُ الخبر من اسم عائلته .. ماذا كانَ يَسْأل ..!.

كيفَ هيَ الآن ..؟

هل تأذنونَ لي بالدُّخولِ..؟

لماذا أتاها بوردةٍ ..؟

أسئلة مُزدَحِمَة في طريقِ عَودتِهِ تعودُ معهُ دونَ أنْ يَطرَحَ أيّ منها لأنّ كلّ الإجاباتِ لنْ تغيِّر من كونِها هنا برعايةِ رجلٍ آخر .. وكونه هنا لأجلِها .

ها هو مُجَدَّداً يُغلِقُ باباً على وحدتِهِ .. رغمَ الطَّرقِ الشَّديدِ .. رغم ضجيجِ الهاتفِ.. بماذا يُجيب .. ؟.

الكلّ يُريدُ التفاصيلَ التي يَبدو أنهُ الجاهِل الأكبر بها .. هو الذي سَقَطَتْ مِنه الجريدة لحظة ذهول حين مَرَّ بالقربِ منهُ ذلك الغريب دون أن يَكترثَ لوجودِهِ وكأنهُ ليس سوى حارس مِمَّنْ وَظَّفَهُم لأجلِ راحتها ريثما يَعودُ إليها بصُحْبَةِ وردةٍ .

كم هو بحاجَةٍ للتفاصيلِ..

لوقوفِها أمامه لِساعاتٍ .. بل أيامٍ .. وهي تشرَحُ الكثير عن عُمرِها أثناءَ غيابهِ .. أو أثناءَ غبائه .

بفضولِ عاشِقٍ يَنطَلِقُ نحوَ أقربِ مَكتبَةٍ لِيَشتري كتابها الذي لم يُفكر باقتنائِهِ مِنْ قبل خِشيَةَ أن يَقرأَ بهِ ما يهدر رُجولته أو ما ينعيه بقلبِها ليَتحَوَّلَ إلى جُثةٍ في كتاب .

هـا هـو يُقلِّبُ صـفحاتِ الـكتـابِ بتـوترٍ شـديدٍ .. باحِثـاً بـينَ السّطورِ عمّا يؤكـدُ أنه لا زالَ يتنفسُ ولو تنفساًاصطناعِيّاً في حاضِنَةِ عمرها ..

وأكـثر ما يَخشاهُ هوَ أنْ يَقرأَ َ سَطرَ إجهاض ٍ قلمِها لِحَمْلٍ دامَ عشرة أعوام به.

فيبدأ بالإهداءِ علّه يُفلِحُ بإيجـادِ المُفتاح الـذي يُمَكنـه مِنَ الدّخولِ إلى سراديبِها قبلَ أنْ يَخطوَ نحوَ أفكـارهـا واحـدة تِلوَ الأخـرى .. باحِثـاً عـن سـطرِ أمـانٍ يَتكِئ عليـهِ وهـو يَتصَبَّبُ عَرَقاً.

أتى إهداؤها على النحو ِالتالي :

((لـكَ فجـيعَتي الأولى ذاكـرة في كتـابٍ.. أُحْرِقـتْ لِتُنثَـرَ رَمـاداً سَـوادُه ألمٌ.. و بَياضُـه أمَـلٌ . فـاقرأني يومـاً عسـاكَ تدركني حيثُ لمْ أكنْ.. ولن تكون))

لكنـهُ اذ ْ شـعَرَ بأنـه المَعْـنيّ الوحيـد بإهـدائِها لم يكـنْ بحاجـةٍ إلا للفصـل ِ الأخـير لِيَخبَـرَ المزيـد عـن صـفحاتٍ فتحَتهـا بعــد أن أحْرَقــتْ صَــفحات الــذاكِرَةِ .. فيغلــق الكتـاب علـى أحداثِـهِ ليقـرأ الخاتِمَـة َعلـى عَجَـل ٍ : ((لا تـدُسَّ رأسَـكَ في الـترابِ كنعامـةٍ لأنـكَ وَحْـدَكَ مَـنْ لـن

يَتمَكنَ من القِراءَةِ حينها .. فما عادَ ثِقلُ حِذائك كافياً لِثباتِكَ لحظةَ مواجهتك ذاتكَ ..

وتِلكَ السّاعَة الباهِظة الثمن في مِعْصَمِكَ .. ما أهدَيتكَ إيّاها بأوَّلِ لِقاءٍ لنا إلا لِتُقدِّرَ قيمة الوقت .. وأنتَ مُنشَغِل بتوسيعِ أحلامك حتى باتتْ فضفاضة فسَقطَتْ عن جَسَدِكَ النحيلِ دونَ أنْ تلحَظَ عُريك الذي لم يكن يَسْتره سوى قلب مَنْ تحِبّ .. و الذي كنتَ تستخفّ به وهوَ الآمن على قلبِكَ حتى مِنكَ)) .

أمامَ خاتِمَةٍ لم تخلُ منَ النصحِ..التعالي .. والاستفزاز كل ما عَلِمهُ أنَّ الرُّعبَ سوفَ يَمْكثُ فوقَ كتِفيهِ زمنَ قِراءَةِ كتابٍ .

معَ مَنْ خَطَتْ سُطورَ العِشقِ سُطورَ الشّوق وسُطورَ الأمَلِ ؟

وراءَ أيّ سَطرٍ اختبَأتْ لِتتلصَّصَ عليهِ الآن أثناءَ مواجَهَته ذاكرته معها في كتاب .. ؟.

هل استْبدَلتْ بعَباءَةِ الجَدَّةِ أثوابَ الهجاءِ والرّثاءِ ..؟

أمِنْ سَطرٍ حالِمٍ برفقتِهِ ..؟

كان كلّ شيءٍ يأخذه مِنَ المكانِ وبينَ لحظةٍ وأخرى تعْتليهِ رجفة تهزُّ جسدهُ لِتترُكهُ أسير إحباطٍ جارفٍ

منهكٍ وكأنه بينَ الفكرةِ والأخرى يُبحِرُ في جولةٍ على متنِ ذاكرتهِ وَسطَ نَوٍّ مُرعِبٍ بمجدافينِ لنْ يقوى على حملِهما للتجديف عكس التيار وهوَ يُحَوِّل فجأةً مسارَهُ من الهجر إلى الحنينِ .

لم يكنْ فصل شتاء .. لكنه فجأة شَعَرَ بأنه عارٍ على مُرتفعٍ في مَهَبِّ الرّيحِ.. بجوٍّ قارس البُرودَة .. يغمره الثلج حتى يختفي .. حالماً بعاطفتِها تلفُّ جسدهُ ولو شفقةً لأنها الوحيدة المُدْرِكَة لجغرافيا قلبه بمناخاتِها المتقلبَة بينَ القطبِ الشَّماليِّ وخطِّ الاستواء.

يُكمِلُ القراءةَ برعبٍ .. غير قادرعلى رفعِ كأسِهِ المَمْلوءةِ بحالةِ اليأسِ التي لازمَتهُ ليلته كنديمٍ .

وحيداً .. ثملاً .. قضى ليلته البائِسَةِ حتى الصَّباح .. يُعيدُ قراءةَ سطورٍ لمْ يُعِرْها أيّ اهتمامٍ مِنْ قبل .. لِيُسْدِلَ بيدهِ المُرْتجِفَةِ ستائِرَ النوافِذِ مُطيلاً زمنَ الظلمةِ أكثر كي لا يُعَرّيهِ النهار من كلّ شيءٍ إلا مِن خيبتِهِ .. تاركاً أشعَّةَ الشَّمسِ تتكسَّرُ خلفَ جدارِ غرفتهِ كيلا تتمكنَ مِنَ التلصُّصِ على مشاعرِ ندَمِهِ ....

وحيداً في ظلمةٍ أطالها لِيُطيلَ تأمّلهُ العميق في سبرِ ذاته من خلالِ حروفها ليشعرَ فجأةً بأنَّ روحه ما عادَتْ تقيمُ بجَسدِهِ بعدَ أنْ فقدَتْ ذاته قدرَتها على التجَرُّدِ والتوازنِ ..

فيشعر بحاجتِهِ إليها اليوم أكثر من أيّ يومٍ مضى..

لِتلفهُ بدِفءِ مشاعرها حُنوّاً فتضع حدوداً لجسدِهِ يُدركُ من خلالِها مَوقِعَ قلبهِ بينَ كواكِبِ فضائِها ..

حالِمَاً بالعَودَةِ لِزَمَنِ الطُّفولةِ عَلهُ يَغفوعلى ذراعيها فتصبح أمّهُ .. لينحني فوقَ رُكبَتيها بخشوعٍ.. مُسْتعطِفاً النسيان علهُ يُرَمِّم ذلكَ الشَّرخ العميق الذي أحدثهُ بروحِها ..

فيقودهُ الحنين إلى وطنٍ لمْ يَكنْ يوماً إلا هيَ بعدَ أنْ فشِلَ في تدريبِ ذاته لِتلِدَ ذاكَ الطفل المُهَمَّش بداخِلِهِ دونَ مساعدتها ..

لماذا تعودُ بإصرارِ أنثى لاقتحامِ ذاكرتِه فيدرك أنه لم ينسها ..

لم يغفُ ليلة دون أن يَنظرَ إلى صورتِها المُتوَسِّطة جدارَ قلبهِ لِيَتمَنى لها ليلةً سعيدةً..

لم يشرقْ صبحاً إلا وفوجِئ بيدِهِ ترتطِمُ بخلوِّ سريرِهِ منها لِتذكِّرَهُ حواسه عمّا حلَّ به بهَجرها .. دونَ أن يجدَ جواباً

واحِداً يُحَرِّرُهُ مِنْ هذا التساؤل لجسدٍ يُطالِبُ برجولتِهِ مُذ هَجَرَتهُ يَداها .. وقلب ينبضُ ليُذكرهُ بأنه لا زال على قيدِ الحياة .

كمْ مِنْ ليلةٍ قضَياها مُكتفِيَيْن بالعِناقِ.. معها بَدَتِ الحواس أكثر مِمّا يعلم.. فقد بدا للأمانِ حاسَّة أيضاً .

امتلأتْ حياته بها حتى باتَ واثِقاً بأنه معها يكونُ قادراً على توزيعِ الحُبِّ لكلّ البشرِ بعدَ أنْ مَنَحَتهُ حُبّاً يَمْلأُ العالمَ .

وأكثر ما يَسْتفِزُّ صباحاتِهِ اليوم أنه رُغمَ هَجْرِها .. الشَّمسُ لا زالتْ تشرقُ .. العصافيرُ تزقزقُ .. وأشجارُ حديقتِهِ تزهِرُ فتثمِرُ .. بينما مساحَة غرفتهِ تضيقُ لِتطْبِقَ جدرانها على صدرهِ عندَ مُنتصَفِ الليلِ فيتنفس ببطءٍ خِشيَةَ أنْ يَنضُبَ الهواء قبلَ لقائِها .

لو أنه عايَشَ غيبوبتها في مُستشفى لكانَ قادِراً

على النظرِ في عينيها دونَ أنْ تلحَظَ وجوده ..

دون أن تلحظَ شوقه .. أسفه .. وندمه .

فجأةً تطاردهُ فكرة هي ابنة أفكارها المُدَوَّنةِ أمامهُ لِتذكرهُ كيفَ كانَ يخرجُ مِنَ المنزلِ هَرَباً مِنْ مُواجَهَتِها

مُتجِهاً إلى مَنزلِهِ الصَّيفيِّ في القريَةِ فيَجِدُها تنتظرهُ هناكَ بابتسامَتِها الطّفوليَّةِ لِتسألَهُ مُختصِرَةً كلَّ العَتبِ : لماذا تأخرت..؟

فتشعِرهُ بأنهُ على موعِدٍ معها حتى حينَ يهربُ مِنها بلؤمِ خِصالِهِ .. لِيلتقيها بطيبِ خِصالِها حامِلةً إليهِ الجوزَ واللوزَ والعَسَلَ وكلّ ما يُحِبّ .. في حين خرَجَ حامِلاً ضغينتهُ زاداً .

أمامَ هذا الطُّهرِ الفِطريِّ لمْ تكنْ تكفيهِ اللغةُ تعبيراً عن فخرهِ بها لِيَكتفي بالقول : (مجنونة) .

بدأ يَسْتَحْضِرُ صوراً مِنْ ماضيها مَعَهُ فيشعر بالأمانِ لِدَرَجَةِ أنْ ينسى وحدته .. بعد أنْ مَشى في دُروبٍ ضَيِّقةٍ لماضيهِ معها فلمْ يَعُدْ قادِراً على إيجادِ بَوّابةٍ يَخرجُ منها وحده .

راحَتْ مُخيِّلتهُ تعيدُ خلقَ العالمِ على شاكلتِها ..

ابْيَضَّ الغيمُ كقلبِها .. أضاءَ القمَرُ كوَجهِها .. وَلَمَعَتِ النُّجومُ كعينيها .

حين تغيبُ الزَّوجَةُ فقط يُدركُ الرَّجُلُ أنهُ كانَ أكثر رجولةً في حَضْرَتِها .. أكثر دلالاً.. وأكثر توازناً.

لم يَعُدْ يهمهُ إنْ اِلتقاها حالاً أم بعد حين .. المُهِمّ أنْ تقودَهُ قدَماهُ باتجاهِها .. ليلتقيها .. حينَها لنْ يكفيه الكونُ حدوداً لسعادتِهِ مَعَها ..

سَيَضُمُّ النجوم عِقداً لعنقِها ..

سَيَضَعُ الشّمس تاجاً على رأسِها ..

والقمر سِواراً في مِعصَمِها ..

حينها فقط ..

سَيَرتوي تراب حديقتهِ المُتشقق ِ تعَطّشاً لقدميها ..

سَتزهِرأشجارها ياقوتاً .. وتثمِرُ لؤلؤاً..

في غمرةِ شوقهِ يحسدها كونها كاتبة لو كانَ كاتِباً لكتبَ أسطراً مُتوهِّجةً شوقاً مُتصَبِّبَةً ندَماً مُتعَطِّشَةً لقاءً لَبَثَّ في كتابِهِ عُمراً جديداً لأجل ِ أنْ يَحياهُ قربها .. وقلباً جديداً لأجل ِأنْ تعشقهُ بهِ .

قضى عمره في غيابها بحثاً عنها حيثُ هَجَرَهُ الحنين بينما لا زالتْ هُنا بينَ طيّاتِ كتابٍ .. إنما هوَ مَنْ مَلَّ القراءةَ حتى أحْرَقَ دفاترها يأساً ..

دفاترها التي فيها وُلِدَتْ صِدقاً .. دُفِنَتْ وفاءً ..

وإليها باحَتْ بآلامِها سِرّاً..

اليـوم يُعيـدُ لملمَـة مـا بقـي مُبعثـراًمِنْ أوراقِهـا مـا بـين بيـوتِ العناكِبِ على طاولةٍ مهمَلةٍ .

فلا يجد إلا أوراقاً لم يكنْ يُعِرها سابقاً وقتاً للتّمزيقِ .

يَقرأهـا مِـراراً لِيُـدركها حيـثُ كانـتْ تـرَمِّمُ مـا انكسـرَ منهـا لتكـونَ اِمـرَأةً .. لا مُجَـرَّد أنثـى بحقيبـةِ سَـفرٍ علـى استعدادٍ للهَجرِ بجرمِ صدقها .

وهو يعومُ في بحرِ الذاكرةِ لِيَطفوَ بـينَ الحـينِ والآخـرِ علـى وَهْـمِ وجودِهـا قربـه..وبلحظـةِ إدراكِهـا سـراباً يغـوصُ إلى أعماقِ وجدانهِ علهُ يجدُ جواباً لِتِلكَ التساؤلاتِ يُبعِدهُ قـدر الإمكان عن هذا الجّهل المُحيط به أسراً..

مُستنداً الى جدارٍ مِنَ الأمَلِ يفصلُ بـينَ أمسِـهِ معهـا وغـدهـا من دونه عله يشعرُ بوجودِهِ السّاعة ..

لِيُدركَ بعـدَ أنْ مَـلأتْ ذاكرتهـا المَكـان كـم منهـا حاضِـرٌ في روحِهِ الآنْ .. وكمْ مِنهُ كـانَ غائِباً وهو مَعَها ..؟.

ويبقـى الجّهـل عـدوّهُ .. والغربـة مَسْـكنهُ إلى أنْ يَلتقيهـا فتعـانِق جَسَـدَهُ لِيَنصَـهِرَ بهـا فتمنحـه بحنـوٍّ ودفـءِ جسـدِهـا أرضاً يَطؤهـا ..

بوسعِ قلبِها وطناً ينتمي إليهِ ..

وباتحادِها معهُ حُدوداً لا يخترقها ألم .
لمـاذا فجـأةً تأخـذ الحيـاة غربتـه علـى عاتِقِهـا لِيَسْـكن ذاكرته دون هويّةٍ فتصبح هي إلهَهُ الذي لأجلِهِ يُصَلي ...
لازالَ يَهبِطُ مـن ضبابِ حضـورها لأعمـاقِ غيابهـا دون أن يكـونَ قـادِرا ًعلـى أخـذِ نفسٍ عميـقٍ يَتكفلُ بانقـاذِهِ مِـنَ الغَرَقِ في عِشقِها المَوقوتِ مُجَدَّدا ً .
وتكمن مشكلته في إدراكِها حواسه قبله ..
حاجته قبلَ أن ينطقَ بها ..
ونقاط ضعفِهِ عينها نقاط قوَّتها .
فيَسْتمِرُّ بالبحثِ ما بينَ سُطورها عساهُ يَجدُ نفسهُ التائِهة كانتِ اِمرأة بنيتها التحتيَّه هي العاطِفة لذا كانتْ قادِرة على تحَمُّلِ قصْفِهِ المُستمِرِّ دونَ انهيارٍ..
اليوم بعدَ أن تنازلَ وقرأ َ مـا كـانَ أمامَـهُ لِوَقتٍ طويلٍ دونَ أن يُعـيرَهُ أيّ اهتمـامٍ.. بَـدَتْ أمامـه كناطِحـاتِ السَّـحاب شاهقة الارتفاع .. متينة البناء ..
ليكونَ عاجزا ًعَنِ التمَيُّزِ أمامها برُقيِّ المشاعر .. وثقافة الشُّعور .

هوَ رجلُ الحلولِ.. رجل الصِّعابِ.. ورجل الأحلام يكتفي اليوم بالبحثِ عن حلٍّ يُعيدها إليهِ لتغدو حلمه الأوحد .

ها هي الوَرَقةُ تهتزُّ بينَ أصابعِهِ المُرْتعِشَةِ :

((قف حبيبي ...

فِخاخي ليسَت لِلأسياد

يا سَيِّدَ أنوثتي ورجولتي ..

ثورَتي وهدنتي ..

عاطِفتي وتعاطفي ..

وسيِّدَ صوتي وصمتي .

لا تتوقف كثيراً عندَ مخارجِ الحروفِ كيلا تسقطَ سَهْواً في فِخاخِ التضليلِ .. فلمْ أعتدْ إلا أنْ أسلكَ معكَ طريقَ الصِّدقِ المُختصَرَةِ .

وحينَ تُحارُ في فهمي اغفُ على مساحَةِ صِدقي الآمِنه علك تصحو مُدركاً سِماتها .

فأنا بحاجةٍ للاستقرارِ فيك

للانبعاثِ بأعصابكَ كرائِحَة الزيزفون ..

فمِنْ فرطِ ما أحبَبْتكَ توَحَّدتُ معكَ .. تماهيتُ فيكَ .. حتى بتُّ أضاهيكَ رجولةً)) .

هـو الشّـاهد الوحيـد علـى أحـداثِ عمـرٍ عاشَـتهُ معـهُ بنبـلِ خصـالها رغـمَ المشـاكِل الـتي كانـتْ تطـيحُ بهمـا لِتفقِـدَهُ صوابَهُ و بفضلِ طيبها فقط كانتْ تضمَحِلُّ وتخمد ..

تجَبَّرَ إلى أنْ أوصدَ كلّ دروب التواصل .. إلى أنْ انتصَبَتْ كلّ الحَواجزِ بينهما .. حتـى استقالتْ مِنْ وظيفـة الزوجَـةِ لِتمـتهنَ الكتابـة في جـوٍّ مِـنَ السَّـكينةِ أعدَّتـهُ لنفسِـها في حضرته كما لو لم يكن موجوداً ..

هـو الشّـاهد الوحيـد علـى كتاباتهـا .. علـى أحـداثٍ دَفنتهـا في دفاترهـا .. أقـرب إليهـا مـن قلمِهـا .. أعمـق فيهـا مـن فِكرَتِهـا .. وأكثـر مـا يُشـعِره بالطّمَأنينـة أنهـا لم تكـن تتصرف عنه إلا لتكتبَهُ هوَ وليسَ سواه .

هو الذي مَهَّد دروب الانفصـال .. لقّن سـلاح الهجـر مُسبَقاً لِتضـغَطَ زنـاده بإصـبَعِها فتكـون بَصْـمَتُها دليـلَ براءَتِـهِ .. خـرجَ مـن المنـزلِ بعـدَ أنْ مَسَـحَ كـلّ آثارعِشـقها السّـائل .. ليتخثر اليوم عشقه في عروقه التي جفّت إثرَ هَجرها ..

لماذا يُعيد استحضارها اليوم بالذكريات .. هـو الـذي سَئِمَ حضـورها بـالأمس .. فيـذكر وقفتهـا أمـام تعجرفـه .. بكامـل أنوثتهـا .. بـرأس منتصـب بـين كـتفين مـرتفعين

يضـفيان أناقـةً وشموخـاً علـى عنـقٍ .. صـدرٍ.. ذراعـين .. وحتـى الخصـر بابتسـامة ثقـة وخجـلٍ بـآن معـاً .. لِيَشـعر برغبةٍ عارمةٍ لِضَمِّها .

لم يكـن جمالها بتقاسيم وجهها بل بذكـاء روحها الممـزوج بأناقةِ ظهورها بحُبٍّ وحيـاءٍ معـاً .. باعتـذار وكبريـاء لِتبـدِّدَ ثورتـه مُلقيـةً خلـف ظهرهـا كـل مـا مَـرَّ بهـا مـن ضـغطٍ هـو مُسَبِّبه الوحيد .

هــذه الــذاكرة ألهبــتْ مخيِّلتــه شــوقاً .. شــوقاً لِغمرهــا .. لتقبيلها .. للتوحُّدِ معها .. للانبعاثِ بروحِها كنفحَةِ خجلها البريئة التي عاشرها عمراً وبقي غريباً عنها

لِيُطفِئ في نهايةِ المَطافِ تلكَ الابتسامة بصرخةٍ مُعَذِّبَةٍ وهـي ترمُقهُ بعَتبٍ رزين دون أن تنبس ببنتِ شفة .. وينصـرف دون أن يخبو بريق الاحترام بلمَعةِ عينيها

مضـت أيـام دون أن يسـتطيع الـتخلص مـن خوفِـهِ المُفـرطِ ورعشة بدنه لِمُجَرَّد التخيل بأنه قد يلتقيها ..

ليقف أمامها فيلغي كلّ أثـر سـابق تركـه بـداخِلِها بنظـرةٍ واحدة ..

حالِمــا أن تصــغِيَ إليــهِ بكــلِّ جوارحهــا كــي يكــون متمكنا من إفراغ ذاته في أحضانها دفعة واحدة ..
ليُذيب جليد مشاعرها نحوهُ بغمرةٍ ترفعُ حرارَة جسدها عشقاً .

لكنه بدءاً .. عليه الانتهاء من قراءة كتابها عله يعلم كيف انقضى زمن انفِصالهما .. فقد يجد ما يعنيه أو ما أصبح يعنيها على الأقل .

كان يقفز بين السّطور المُمَدَّدَةِ فوقَ الورقِ فما عاد التَّسلسل يعنيهِ وهو يبحث عن شيء أهمّ ..
كالخيانة مثلاً ..

فتطِلُّ عليهِ كزائرٍ خفيفِ الظلِّ يَعْبُرُ بسرعةٍ وكأنه يُلقي التَّحيَّة وحسب .. ليقولَ بعبوره إني ههنا ..
لِتسْقطَ أمامه بزلاتِ قلمِها .
إنه الخريف .. فصل الكتابة لديها

(١٠)

من الصَّعبِ أن نُقَدِّر ما يُخَبِّيء لنا القدر ..
لذا نلوذُ بالأحلام ..
نحلم بيومٍ هادىءٍ على أملِ قدومهِ
نرتوي أملاً .. نقتاتُ أملاً .. ونكتفي فرحاً بالانتظار .

ها قد انقضى أسبوع على وجودها في مستشفى أقامَتْ به كمُقيمٍ في أفخمِ الفنادِقِ ،ما كانت حالتها الصّحّية تستدعي المكوث كل هذه المدَّةِ إلا أن أمرَ من دخلتْ بأمرهِ كان أقوى من كلّ حاجة.

اليوم ولليوم الرّابع على التوالي من تمام عافيتها ومن انقطاعه عن زيارتها .. إرسال الورد إليها .. وحتى السّؤال عنها .. يدخل الطبيب ليخبرها بأنها تستطيع الخروج الآن إن شاءَتْ .

تصمت بانتظار أنْ يخبرها بأن أحداً سوف يأتي لمرافقتها .. أو أن يمدَّها بورقةٍ تحملُ اسماً أو رقم هاتف لكنّ الطبيب ينصرف دون أي تعليق .

بعـد لحظـاتِ تأمُّـل لمـا مـرَّتْ بـه وصـولاً إلى لحظـة ليسـت سوى نهاية جديدة لأمر لم يبدأ بعد .. مَزقتْ أوراقاً كانت قـد أمَـدَّتها إدارة المَشـفى بهـا ونهضـت لِتخلـعَ عنهـا ذاك الثـوب الأخضـر الـذي يرتديـه المرضـى عـادةً لأنـه لم يكـن بحوزتها سوى ثوبٍ ناصِع البياض.

دخلـت بـه علـى نقالـةِ إسـعاف .. يُعَـرّي ظهرهـا بالـكامـل ويلفّ خصرها بقماش مفرَّغ شفاف إلى حدٍّ ما .. نُثِرَ على صدره بشـكل عشوائيٍّ بعض الخَـرَزِ الفـائِق اللمعـان لتبـدو كعروسٍ بليلةِ زفافها .

كـان خجلـها لحظـة ارتدائـه للخـروج بـه مـن المستشـفى يُعـادل فرحهـا وهـي ترفـعُ حوافـه المُطـرَّزةِ للمـرةِ الأولى لِتصْعَدَ خشبة المسرح .

الآن سَتسْتقِلُّ سيّارة أجرة تأخذها إلى القريـة وقـد تركـتْ حقيبتهـا في غرفـةٍ خاصَّـةٍ لِتبـديل الملابـس في المركـز الثقافيّ حيث خلعَتْ ثوب السَّفر .

اليـوم وقـد انقضـى أسـبوع علـى تلـك الأمسـية الأدبيَّـة مَـنْ سَتجِدُ بانتظارها لِتبَدِّل ثوبها الرَّسميِّ هذا .

يا لسوء حظها .. حتى محفظة نقودها بقيت هناك .. أوراق ثبوتيتها وكل ما تحتاج لسفرها كيف تغادر من دونه ؟

بعد أن انتهَتْ من ارتداءِ أناقتها بلحظةٍ لا تليقُ بالأناقةِ .

تخطو نحو السّرير لتحمل بين أصابعها المرتجفة قلماً فاخِراً مِنَ الذهَبِ الخالِصِ حُفِرَ عليه بفنٍّ اسم روايتها .. (قناع .. حلم .. وَ رَجُلْ) مع تاريخ توقيعِها .

إنها هدِيَّة ذاكَ الذي أصبحَ قدرَها دونَ عِلمِها وبلحظةِ استِدارَتِها يدخل الطبيب مع كافةِ الطاقم الذي أشرفَ على راحتِها .. لِوداعِها .

بينما تسيرُ نحوَهم بارتباكٍ ما عَهِدَتهُ يوماً بشخصيَّتها سَرَقَتْ نظرة نحو الممَرِّ الذي ستعبره لترى أطباء المشفى كافةً .. مُمَرِّضِيها وعُمّالها قد اصطفّوا على حافتي طريقها احتراماً لوداعِها .

أطبقت يدها على القلم بقوّة خشية أن يسقط منها بلحظةٍ ما عادَتْ تستطيعُ السَّيطَرَةَ على رعشةِ جسدها..كم مِن ألمٍ بعدَ أملٍ حملَّها هذا الكتاب لِتهوي على حافةِ السّرير وتجهش بالبكاءِ . ظنَّتِ الحياة تلاعبها لعبة الكنز

والقرصان فما أن تهديها أملاً حتى تسلبها حلماً بطريق لم تعبرهُ بعد .

لكنَّ القدرَ ليسَ قدرَها الآن والطريق الذي رُسِمَ أمامها بقلم سحريٍّ وهي على نقالة إسعاف إلى المستشفى ما كان طريقها .. إنما طريق ذلك الغريب .. وهي ليست سوى بطلةٍ في كتابِ حياته .. خُلِقتْ لِتشارِك محطة من عمره .. لا من عمرها .

بعد أن بَكَتْ طويلاً في غرفةٍ بَدَتْ لها فارغة رغم ازدحامها . خرساء رغم ضَجيجها .. نَهَضَتْ وآثار الدّموع تجرحُ مقلتيها .. أخذتْ نفساً عميقاً يكفيها لدقائق عبورها التي قرَّرَتْ أنْ تُسَرِّعها فجأة ..

بصوتٍ خافتٍ شَكرَتْ إدارة المُستشفى على كلّ ما قدَّمَتْ لها .. وبعباراتٍ أدبية جزلة وجَّهَتْ شكراً مُبَطَّناً لِمَنْ أوصى بها ..

عَبَرَتْ مُصافِحةً يُمنةً ويُسرى كلّ مَنْ وقفَ لِوداعِها وما أن لاحَ ضوءُ النهار خلفَ المَدخل الرَّئيسيّ حتى اشتمَّتْ رائحة الحُرّيَّة .. لِتشعرَ بأنها اليوم وُلِدَت كاتبة للمرَّة

الأولى .. بين يديها كنز ذهبي وفي قلبها كلمات توّاقة للحياة .

أوقفتْ سيَّارة أجرة وبلحظةٍ أصبَحَتْ بداخلها مُغلِقة ألف باب على أناقتها ، راحَتْ تحَدِّثُ السّائِق وكأنها تتابعُ إخباره كلّ ما يَعلمه عن قِصَّتِها مُعتذِرةً عن محفظةٍ نقودها إذ هوَ مُضْطَرّ أن ينتظرها أمامَ منزلِ صديقٍ لها لِتأخذَ مِنه مالاً قبلَ أن يُكمِلَ طريقه إلى القريةِ ..

لكنها فجأة تشعر بأنه لا يَسمعها .. وهو غير قادرعلى إخفاء دهشته لِمَظهَرِها ..

هو السائق الذي التزمَ لِسَنواتٍ بنقلِ زوّار هذه المستشفى إلى منازلهم .. لم يصادف يوماً ثوباً كهذا ،سارَ بها مسرعاً وكأنهُ يريد أن يَنقلَ إليها تعاطفهُ معها في إخفاء أمرٍ ما .. دونَ أنْ يَتلفّظَ بِكلمة واحدةٍ.

ها هي سيّارة الأجرة تقاربُ مشارف القرية .. ومنزلها يُلوِّحُ إليها مِنْ أعلى الجبل .. شامِخاً.. مُحِبّاً.. مُتلهِّفاً لحلولها به .. ليشهَدَ معها مُجَدَّداً مَولِدَ كتاب .. وبعضاً مِنَ القصائِدِ المُباغِتةِ التي تنثرُ في أركانهِ الدّافِئَة كلما غمَزتْ لها واحدة من إطلالاتهِ الرّائِعَةِ بموعِدٍ مَعَ القلم .

(١١)

لا تلـتفتي إلى الـوراء .. لا تعـدّي مقصـوراتِ العمـر الـتي عَبَرَتْكِ دونَ أن تعبريها .. ولا تستعيدي ذكرى استراحاتٍ بأحلامٍ دفعتِ عمـركِ أمـلاً بتحقيقهـا .. بينمـا يكمل هـو عمركِ باحثاً بـين السّطور محـاولاً استنطاق الفـارغ منهـا علّه يجد كلمةً واحدةً تعلن رجولته ..

تدخل المنزل بثوبِ عروسٍ فاخر ..

فهل من مفاجأةٍ أروع من عريسٍ ينتظرُ بفارغِ الصَّبرِ ..!

بعـد أن أغلقـتِ البـابَ لِتصـبح كـلّ مَفاتنهـا داخـل المنـزل رفعتْ شعرَها بكِلتا يَديها عن ظهرها العاري ..

شَبَكتهُ بقلمٍ باهِظِ الأناقـةِ مِنَ الـذهَبِ الخـالصِ وأخـذتْ تتلفَّتُ مُتأمِّلة الحضور.

رَفعَـتْ حـواف ثوبهـا لِتَتَـرَنَّح بكعبهـا العـالي بخُطـاً واثِقـةً وكأنّها تسيرُعلى أنغام الموسيقا ..

رافعةً رأسَها الشَّامِخ لِتوَزِّع ابتساماتٍ خجولةً على كراس خالية ..

ليباغِتَ حلمها المُزيَّف .. صوت من الخلف .

هو : هل نويتِ الزواجَ من رجلٍ آخر..؟

ودهشة تزيد من شهقةِ ثوبها التي شَعَرَتْ بأنهُ سَقطَ عنها لتصبحَ عاريةً حتى من صوتِها .

وأوّل ما تفكر به هو الردّ على مشهدِ مُراهقتها

هي : ظننتُ المنزل خالياً...

تتركُ حوافّ ثوبها ليتهاوى فوقَ كعبٍ خَجِلَ بخطاهُ .. وترفعُ يَدها إلى شعرها لِتحَرِّره من القلم كي تسترَ عريّ ظهرها وكأنها لأوّل مرَّة تلتقيهِ وتخشى إظهار مفاتنها أمامهُ.

هو : دَعيهِ أرجوكِ .. فهكذا أنتِ فاتنة ..

كم خشيتُ لحظة اللقاء .. لكنَّ جمالَ مُحَيّاكِ أزال كلّ الحواجز .. حتى شعرتُ بأنني رسّام وقد انتهيت لِتوّي من رسمك لوحةً أمامي .. وإذا بكِ تنطقين .

هي : أراكَ كاتباً .. لا رسّاماً .. تصوغُ جُمَلاً أعجزُ عن إيجادِ ردٍّ لها .

هــو : الرّســم .. الكتابــة .. الــرَّقص .. والعــزف كلــهم يصبّون في فنّ الخلق .. فما كـان التعبيرُ بالكتابـةِ يومـاً أصدَق من التعبير بالرَّسم .

هي : وكأنكَ آمنتَ بأنكَ رَسَمتني حتى أنطقتُ لوحتكَ .. فما أظنكَ جئتَ لِتلقي مُحاضَرَةً بأنواعِ الفنونِ .

هو : بل جئتُ أهنئكِ ...

هي : على روايتي .. أم على سلامتي .. ؟

هـو : علـى أيّ شـيء يُسْعِدُكِ .. فبعـدَ أنْ رأيـتُ فرحـك هـذا الممزوج بالانتصار .. نسيتُ أو حِرْتُ بماذا جئتُ أهنّئ.

هي : أراكَ جئتَ تنصِبُ فِخاخاً (تنحني بـلا مبالاة رافعة ثوبها لِتخلعَ الحذاءَ وهي تواصل ..) .. وكيفَ عرفتَ بـأني سآتي إلى هنا؟

هو : منكِ

هي : مني .. كيف وأنا ..!!!!

هو : أقصد من روايَتِكِ .. أأنسى الخريف .. ؟

هي: فصلُ السُّقوطِ .

هو: وفصلُ الكتابةِ أيضاً .

هي : لكنك تعلم بأني أفضِّل أن أكونَ وحدي .. أم أنكَ جئتَ لِتفسِدَ عليَّ كتابتي .

(تنحني لتضع الحذاء بعيداً فتفاجَأ برأسِها يرتطِمُ بيدهِ وهو يسحبُ القلم)

هو : ما أظنني عدتُ قادراً على إفسادِ شيءٍ (ينظر إلى القلم وهو يقلِّبه ليقرأ ما حُفِرَ عليه) وأنتِ تمتلكينَ قلماً كهذا ما أظنني قادرعلى إفساد أو إضافةِ شيء .

هي : كان هدِيَّة نجاحي ..أنتابع الحوار قرب الباب ..!

هو : لا .. ولكنْ مَن يعلم بأنكِ هنا .. ؟

هي : لا أحد.

هو : يُسعِدُني سماع هذا .. إذاً لسْتِ على موعدٍ مع أحد.

هي : كما لم يكن لي موعد معكَ.

هو : هل تخططينَ للزواج من رجلٍ آخر..؟

هي : الزواج .. !!! .. أظنُّ جرعة واحدة منه تكفيني.

هو : لو كان جوابك نعم لأرَحتِني أكثر.

هي : اذاً لمَ أنتَ هنا .. ؟

هو : لأنني لازلتُ أعشقكِ .

هي : لمَ تردْ تزويجي إذاً... !

هـو : لأنـي لا أرغـب بـالوقوفِ فِي طريـقِ سـعادتك حتـى ولـو كنتِ أنتِ سعادَتي .

هـي : وهل أنتَ سعيد ..؟

هو : إنْ كانَ سؤالكِ عن هذهِ اللحظة فالجواب عندكِ أمـا بالنسـبة لعمـرٍ مضـى مـن دونِـكِ فمجيئـي هـو أصـدقُ جواب ..

(بقـوَّةٍ يَسْـحبها إليـهِ قبـلَ أنْ تنطـقَ .. يَلـفُّ عنقهـا بيمنـاهُ وخصرهـا بيسـراه ليبدأ بتقبيل جبينها المُستَتِر تحـتَ خصـلٍ مـن شـعرها المنثـور علـى وجههـا فيرصـف قـبلاً مُتراصَّـة وصولاً إلى ثغرهـا .. مُحَوِّلاً حروفهـا الـتي كـادَتْ تنطـقُ بهـا إلى بركـان يقـذف حِمَمَـاً مـن نـوع مختلـف حتـى مـا عـاد قادراً على تمييز دَقَّاتِ قلبهِ مِنْ دَقَّاتِ قلبها ..

ولا يتركهـا حتـى يشـعر بحـرارة جسـدها ترتفـع بسـرعةٍ وكأنّها محمومة ..) ليسأل : وأنتِ ؟

هـي : طـوال حيـاتي وأنـا أفـرح لمُجَـرَّد أن تكـونَ سـعيداً برفقتي وأنتَ تختفي حين تشاء وتظهر متى تشاء وأنا عليَّ أن أكـونَ جـاهزة لِلـرَّدِّ علـى جميـع تسـاؤلاتك لكـن اعذرني فأنا لستُ مُستعِدَّة الآن للحوار ..

فأرجو ألاّ تملَّ صَمتي .
هو : لكنْ ألمْ تقولي بأنَّ العمرَ يَمضي .. دعنا نحيا قبل أن يدركنا الوقت ..!
هي : الوقت أدرَكنا إنما أنتَ من كانَ في غفلةٍ عنهُ
هو : سأنصرف إذاً .. أنتِ ترفضينني بأسلوب كاتبة
هي : حين رأيتكَ شعرتُ بسعادةٍ عارمَةٍ .. لكنني لم أعلم أكان مصدرها لقياك .. أم انتصاري أمام هزيمتك ..
لذا لا أرغب بإقامةِ حوار حتى أحدِّدَ مصدر سعادتي بدقةٍ
هو : وعلى ماذا تنوين ..؟
هي : بين يديَّ كتاب أنوي إنجازه .
هو : لم أقصد الكتاب .. تعلمين .
هي : كي لا تظنني أراوغ لأعفوَ نفسي من الإجابة
أقول : بعدَ قبلةٍ لم أشعرْ منها إلا بغُربتي معك شعرتُ فجأةً وكأنَّ عقلي أبى التَّواصل مع قلبي وألم في جسدي أعادني لإيقاعٍ روتينيٍّ أقضي نهاري به دون أن أبلغَ غايةً .
فكُفَّ عن التَّجديف عكس التَّيّار مُدَّعياً بأنَّ كلّ البشر ليسوا إلا أمواجاً ضلَّتِ الاتجاه .. وأنتِ تصارعُ لإثباتِ نظريَّتك المكتوبة على رمالِ شاطئي .. حيثُ

اختفتْ حروفها بينَ مدٍّ وجزرٍ .. وأنتَ رجلٌ بداخلِ رجلٍ .. بداخلِ رجل .. لا اعتراف .. لا انكسار .. لا اعتذار .

يرنّ هاتفي مَرَّاتٍ باليوم .. أشخاص مختلفون يمدّونني بالعاطفة .. الدّعم .. والأمان .. لِيَرْتفعَ مزاجي ويرفعني مرتبةً من الفخر..

أنتَ أمامي الآن غير قادرٍ على منحي شيئاً سوى إضعافِ قدَمَيَّ لأشعرَ بأنني بطيئة الخُطا..

تماماً كالذي بين سطوري .. لم أكتبه لكنَّ الكثيرين قرؤوه .. بينما أبيتَ أن تقرأ ما كتبتُ إليكَ مِراراً

بتُّ معكَ أشعر بشيءٍ كما الوحدة .. كما الغربة .. كما فقدان الأمان .. شيء لم أشبِّههُ يوماً إلا بسنِّ اليأس .. أتى ليُذكِّرني بأنني كبرتُ جيلاً.. أو أنَّ جيلاً قد كبُرَ بينما أنا لازلتُ طفلة تلعبُ الغمَّيضة .

أينما حللتُ فإنَّ مساحة قلبي تتَّسِع .. ويَتحوَّلُ مَوطِئ قدَمَيَّ إلى قبور .. فيهطل بيَ الحزن لأمْتَهِنَ سقاية القبور في فصلِ الخريف ..

حيثما أبكِ تنبتْ زهرة في قلبي على شاهدةِ قبر .. تبعثُ رائحةً بداخلي كرائحةِ البخور .

وكلمـا قـلَّ أهلـي كلمـا ازدَدْتُ أهـلاً لأمـلأ قلوبـاً شـاغِرةً عطفا

بينمـا أنـتَ لا تـرى مـن واجـبي سـوى الـكآبـة .. فتحجـب مظلَّتكَ لؤماً كلما أمْطَرَتْ سمائيَ موتاً ..

لِتُغـرِقَ مشـاعري حزنـاً قبـل أن تنصـرف .. ولا تعـود إلا بعـد أن تعلم بأنَّ ما انكسَرَ بداخلي قد تـرَمَّمَ .. وتـرفض إلا أن تكـونَ كـلّ البـداياتِ معـكَ .. فأشـعر بواجـبِ الكتابـة يناديني لحظة التقاءِ أنيني الأبكم بشعوركَ الأصمّ .

هو : في السّابق كانتْ مُجاملتكِ صَمتاً .. بينما اليوم وأنـتِ تعتـذرينَ عـن مقـدرتِكِ علـى إقامـة حـوار.. تشـرَحينَ كيـفَ يَمنحـك رنـين هاتفـك دعمـاً وأمانـاً بينمـا يبقـى وجـودي مجهول الهويَّة .. أهذا ما أكسبك إياهُ الأدب ..!

ظننتُ قُبلتكِ تذكرة مـرور لحيـاة جديـدة .. أكانـتْ حيلـة كاتبة إذاً ..؟

هي : ما اعتدتُ أن أحتالَ عليكَ .. لذا لا تجـادلني بحماقـة .. تسـتطيع الخلـود إلى النـوم .. لاأظنـك سـتغادر لـيلاً .. أشـياؤك لا زالـتْ مكانهـا .. قـد يسـرُّك هـذا .. كنـتُ واثقـة مـن عودتِـك لكـنني مَللتُ الانتظـار حتـى مـا عـدتُ

أنتظـر .. كعادتـك تـأتي دومـاً إنّمـا بعـد انقضـاء وقـتِ انتظارك .. أو بعد أن أعتادَ وحدتي .. وما أظنّني في فصل الوحدة قادرة على العبور بكل الفصول .

أنـا الآن متعبـة أكثـر مِـن أيّ يـوم مضـى سـآخذ حمّامـاً وأخلد للنوم .. قد تُفلِحُ إطلالة الصَّباح باستنطاقي أمامكَ

هو : كأنكِ قضيتِ نهارك بمناسبةٍ رسميَّةٍ مِمّا استهلكَ كلّ طاقتك .

هي : معكَ حقّ .. إنه يوم غيرعادي وكان عليَّ الاهتمام بمظهري .

هو : أنا لمْ أقصد المظهر.

هي : وأنا أجيب على ما بين السّطور

هو : هل أستطيع استعمال الحمّام بعد أن جعلني حوارك المحموم أتصبَّب عَرَقاً ؟

هي : هو حمامك أيضاً .. لا تضعْ نقاطاً وراءَ الجُمَل كي لا تسقطَ سَهواً في فِخاخ التَّضليلِ .

هو : كأنّكِ تعترفين بتضليلي .

هي :لم أعتدْ معكَ إلا أن أسلكَ طريق الصِّدق المُختصَرة .

هو : كعادتِك تثبتينَ أمامي وبينكِ وبينَ الإغماء خطوة لا أعلم كيف تفتعلينَ اللامبالاة بينما يُطيحُ الجنون بأعصابي !!

هي : تصبح على خير.. وإن كنتَ تودّ أن تصبْحَ سريعاً فما عليكَ إلا أن تنام .

هو : أنشرَبُ قهوة الصَّباح معاً .. أمْ أنَّ لديكِ التزامات مع أحد ..؟

هي : اعتدتُ على قراءَةِ مُفكِّرَتي صباحاً.

هو : يبدو أنك تغيَّرتِ في غيابي .. هل ستنامينَ حقّاً ..!

هي : لا .. سآخذ حمّاماً بارداً يتكفل بتجميد أفكاري حتى الصّباح كيلا أغوصَ بها فلا أجد سبيلاً للراحةِ

هو : وهذه عادة جديدة أيضاً ..!

طوال حياتك تكتبينَ قبل النّوم أمْ أنَّ هذا تابع لنوع الأفكار ..؟

هي : بل للعادات .. في غيابك عَمِلْتُ على تغيير كل عاداتي فبدأت بما اعتدته بحضورك .

هو : وهل تحسَّنتْ حياتك ..؟

هي : طبعاً .. على الأقل بالنّسبة لوحدتي .

هو : لكنّكِ اليوم لستِ وحيدة

هي : أخشى إنْ استمرَّيتَ بإرهاق أعصابي بأسئلتك هذه أن أطالِبَ بوحدتي .. وهذا من عاداتي الجديدة أيضاً

هو : ماذا .. الوحدة .. ؟

هي : لا .. المطالبة

هو : أوَكنتِ أسيرة معي .. ؟ ..

أيعجبكِ أن نقضي اللّيل نتحدَّث هكذا ..!

هي: لا أظنُّكَ أتيتَ آمِلاً بالسّهرِ معي على طاولةٍ مليئةٍ بالشُّموع لأرتمي قبل آخر الليل في أحضانكَ متعثّرةً برغبةٍ

هو: لماذا أنا هنا إذاً ..؟

هي: لتعلمَ ماذا فعلتِ الشُّهرة بتلكَ الطِّفلة المُنكسِرَة التي تركتها خلف بابٍ موصدٍ على وحدتها وحزنها ..

إن تسلَّل إلى حياتها رجل آخر ..

إن كان ليلها لا يزال موحِشاً ..

و فِراشها شاغِراً .

هو : لا تكملي .. يبدو أنَّ عليك أن تأخذي حمّامكِ البارد سريعاً .. لأنّكِ بحقّ بحاجةٍ لتجميدِ هذه الأفكار البالية .

وأتمنى أن تُسرعي لأنَّني بحاجة للاستحمام بمائكِ البارد أيضا علّني أجَمِّدُ حنيني إليكِ حتى الصَّباح ،حياتك أصبحتْ مليئة بالنَّجاحاتِ حتّى ما عادَ لوجودي أثر.. وأنتِ تضعينَ فراغاً وراء كلّ إجابة مُختَصَرة .. بينما أكتفي حلماً بجملةٍ هاربةٍ من بين شفاهِكِ تؤكِّد لي أنّني أقفُ أمامك الآن علّني أصحو من كابوس هجرك لكن يبدو أنّني لم أشتهِ سوى ما تعُفّين عنه

هي : كم اشتهيتُ لعمري حياةً مليئةً بك .

وكم تمنَّيتُ لو كنتَ معي على مقعدٍ حجزته لكَ قربي قبل أن ألتقيك .

لكنّك حين أتيتَ فضّلتَ أن تشغلَ مقعد القيادة في المقصورة الأولى .. لترى الحبَّ في مرآةٍ شاغلاً نفس القطار دون أن تكترثَ للفراغِ الذي يفصلنا وللمقعدِ الذي لا زال قربي ولم يشغله سوى كتاب .. كنتُ أخطُّ عليه سطوراً بعَدَدِ الشّعرِ الأبيض الذي كسا رأسك من الخلف .. كتاب له بداية واحدة لحظة نويتُ السّفر على متن قطاركَ .. ونهاياتٍ بعَدَدِ الاستراحاتِ القصيرةِ التي توقَّفنا بها .. وأنا أجلسُ وحيدة على طاولةٍ صغيرةٍ في

استراحةِ عُمر بين محطة وأخرى مُصِرَّة على طلبِ فنجانين من القهوة وعلبة تبغ واحدة .. ويَمضي الوقتُ دونَ أنْ تأتي فَأ ُفرغ فنجاني بغبَّةٍ .. نافخة دخان تبغي كضبابِ حضورك بعد أنْ أعلم بأنكَ دفعتَ ثمنَ قهوتي وتبغي ..

لأتركَ طاولة استراحتي مَكسورة الأرجل ..عرجاء التواصل .. منخفضة الأمل ..

فأغدو على مقعدٍ باردٍ وضعَ حدوداً لجسدي .. في مقصورةٍ أطبقتْ على أفكاري بإغلاقِ بابها إعلانَ نهاية محطة من دونكَ فأكتب أسطر امتنان .. واكتفي حلماً بالوصول إلى المحطة الأخيرة محتفظة بما تبقى لي من دفءِ مشاعري .. فأبدأ بإفراغ ما جمعته لك في حقيبة سفري .. وأول ما تقع يدي عليه هو أحلام أبهظ من أن يستطيعَ قلبي دفع ثمن مواكبتها ..

حَمَّلتني إياها في مكتب الحجوزاتِ ريثما نلتقي في قطار لا زلتَ تسابق فيه رياح السنين أملاً بالوصول إلى ربيع العمر وأنتَ تسبرُ الحياة معي في مرآةٍ.. لتقودَ بجنونِ أملٍ نحوَ بذور سعادةٍ .. دون أن تعلمَ بأنك تسقيها من جعبةِ السِّنين

لتصلَ أمامَ سنديانةِ حلمكَ الشّامِخةِ بشعرٍ ابْيَضَّ انتظاراً ..
وجعبة فرغتْ زمناً ..
فتحلم لو بقيَتْ سنديانتكَ أقصر لِتتَّكئ عليها في زمنِكَ القادم انحناءً..
بينما لا زلتُ أحلمُ بأن تشاركني فنجان قهوتي ولو في محطةٍ قصيرةٍ .. بزمنٍ محطةِ أملٍ وبسرعةِ تشييع حلم ..
لنلتقي في كتاب .
((ها هو الماء البارد يتدفّق فوق جسده بقوّة حتى بدأ يشعر بأنه قد سقط من أعالي القِمَمِ ليرتطِم بجبلٍ جليديٍّ .. يا لقساوة عاداتها .. فما اعتاد جسده في غيابها على شيء سوى الشوق والحنين ..تراها تعلم بأنه يستعمِلُ عاداتها لأجلها .. ؟
وبأنه باتَ أكثر منها استفزازاً لِيُغيِّرَ عاداته فقط لِيَخْبَرَ خفايا وحدتها ولو تحتَ ماءٍ باردٍ ..
ماله وتجميد الأفكار .. هو الذي أتى حالماً بسيل الأفكار يدفقه إليها .. لِتشيدَ سدوداً مَنيعةً عندَ أوَّل قبلة حنين.

تعـالي إليـه .. تعـالي قبـل أن يتجمَّـد آخـر نفـس ﴾ صـدره .. تعالي ليقول لك بأنك أنت كل عالمه .. بأنـك مـاؤه وقوتـه .. أمّه وطفلته .. وكل محطّات عمره الآتية .

حمامك البارد هذا جعله يحتاج دفئاً لا يوجد إلا بصدرك .. أنـت يـامن يحيـا معـك كـلّ الفصـول خلـف جـدار ليلـةٍ خريفيَّةٍ .

كـم كـانت غريبـة عنـه .. ظـنَّ الـدخول إليهـا صـعباً حتـى باتَ الخروج منها أصعب .. ولازال يحلم بـأن تعـودَ حبيبتـه .. تمسح شعره لتهدِّئ ثورته .. تقبِّل جبينـه قبـل أن يغفـو وهـي تؤكِّد عشقها لصلابتهِ .

﴾ فِـراشٍ ينتظرهــا .. دافــئٌ فِراشــها كـالعــادة .. لكــن المكان موحش مـن دونهـا .. ومـا الـذي يُلهيـه عنهـا ﴾ هـذه الليلةِ سواها ..!

لكن كيف يغفو بعد أن ألقـتْ مـا ألقتـهُ أمامـه مـن جـدلِ الأفكـار.. ليقضـي الليـل يبحـثُ عـن مـبرِّرٍ يبقيـهِ حتـى الصَّـباح .. وجـرس الهـاتف ﴾ غرفـةٍ أُقفِلَـتْ علـى عاداتهـا الجديـدة لم يهـدأ طـوال الليـل .. تراهـا أخـبرتهم بوجـوده .. أكانت على موعدٍ مع أحدهم واكتفى بمكالمتها هاتفيّا

.. كم من أسرارٍ تُخَبَّأ في هذا المنزل .. وكم أصبحَ غريباً به .. تراها هي من غيّرتِ المكان .. أم أنَّ أماكنا ً زارتها بغيابه قد غيّرتها .. بكلّ الأحوال هو لا يشعر سوى بالغربة في منزلها .

مع أرق الليل وضجيج الصّباح لحظةَ استيقاظها ينتظر أن تأتي إليه بثوب نومها .. هو السّجين في غرفةٍ مجاورةٍ .. أن تُعلِنَ فكَّ حصاره .. أن تعتذرَعن أشواقٍ كبَتتها لِتنفلِتَ في الصّباح فتجتاح رجولته .. أن تجامله لتقول : خريفي يزهرُ ربيعا ً بوجودِك .. وشمسك أينعَتْ بذارَعشقي حتى أزهرتْ فأثمرتْ .

لكنه لازال يَكتئِب مع رنين الهاتف كل لحظة ليتذكَّر بأنَّه ماعاد عليه أن ينتظر وهما ً .

وماذا ينتظر بعد أن سمعَ صوتَ كعبها يفضحُ أناقتها ويعلنُ انصرافها من المنزل لبدء نهارها دون الاكتراث لوجوده .. دون أن توقظه أو أن تسأله إن غفا في فِراشِها .

ها هي أوراقها مُستلقية أمامه .. مُمَدَّدة أسرارها في منزلٍ باتَ وحيدا ً به .. وكلّ ما أتى يطلبه يأتيه كقهوة الصَّباح برائحةٍ عبقةٍ ملءَ المكان ..

يحمل فنجانه بيده ويتنقل بين الغرف باحثاً عمّا يَستحِقُّ التوغّل فيه ..وهل من شيءٍ أهمّ من طاولتها الفوضويَّة ...؟؟؟؟

وحيد هو وكلّ ما تمنّى بين يديهِ .. كلّ الأسرار التي أتى يسألها مُستعِدَّة للإجابةِ دون استنطاق ..

تراها وَضَعَتْ أمامه ما تريدُ أن يعلم .. أم أنها بالفعل لا تخشى على شيءٍ إذ لم تُبيِّتْ سرّاً في غيابه ..!!

فتغيير العادات ليس مشروطاً بتغيير الأخلاق وإن كانت تتحدث بعنجهيّةٍ وثقةٍ .

يخشى القراءة أو يؤجِّلها إلى بعد حين فهو بحاجةٍ لِسَبر خزانتها .. من ملابسها يستطيع أن يُخمِّنَ مناسباتها واهتماماتها في غيابه .

يدخلُ غرفتها وكأنه يتلصَّصُ على عريِّها بينما دقات قلبه تزداد فجأةً .. وتتباطأ فجأةً .

أوراق صغيرة نُثِرَتْ على السَّرير غير المُرَتَّبِ تحملُ أرقام هواتف بلا أسماء .. وجهاز الهاتف قرب السّرير يُدلي الشّهادة بأسماءِ مَن هاتفوها ليلاً .. وحتى الصَّباح .. حقيبة يَدِها المُفرَغة تماماً ملقاة على السّرير.. يبدو أنها

بـدَّلتها علـى عجـل .. وثوبهـاالأنيق خلـف البـاب مضـطجِعَاً بكسلٍ.. ثَمِلاً وكـأنّه لم يَصْحُ من سـكرته بعد .

كـانَ صَمتُ غرفتهـا يَصْـرخُ بخطـبٍ غـير اعتيـادي .. لا بُـدَّ مِـن أنَّ أمـراً حَـدَثَ لِتُحْـدِثَ كـلّ هـذه الفوضـى دون الاكـتراث لشـيء .

ويبقى الجّهل عدوّه ..

أسـيراً غدا في منزلهـا إلى أن يَلتقيهـا مُجَـدَّداً أو يقـرأ كـل مـا بـين سـطورها بـتمَعُّن .. ليحـرق المسـافة الشّاسـعة الـتي حالـتْ بـين أمسـه وغـدها ... فهـل هنـاك محطـة يلتقيهـا بهـا بعد هذه الاستراحة العاصِفة بين أوراقها ..؟

(١٢)

أُحِبُّ رَجُلاً يُكمِل ما أبدأ .. ويبدأ ما أنوي .

كانت سورية تنزف وقد تألَّبَ عليها ذئابُ الشَّرقِ والغربِ فأحدثوا خراباً بمنشآتها .. اغتالوا عقولَ عظمائها وأدمغتهم ليوقفوا تقدّمها .. بينما يكبر أطفالها هاتفين بالوحدةِ إيماناً بوطنٍ لمْ يتخلَّ عن كرامةِ شعبهِ يوماً.. فكان الشّعب كرامتهُ .

ليبلغ الوطن بإصرارهم ربوع المجد .. ويبلغوا بصمودِه كرامةَ هويَّة .

وتلد نساؤها جيلاً جديداً لِيَخطّ بالياسمين على ترابها الرسالة الخالدة هاتفين : (يحق لي اسم أبي)

ومَن آباؤهم سوى شهداء حرب سابقة وشمس مجدهم التي لا تغيب .

ها هو الفقد مُجَدَّداً يَنسَلُّ مُتسارعاً إلى خريفِها .. يطرق طرقاً مُخيفاً على أبوابِ قلبها بيدِ ذلكَ الغريب ذي

الأصفار المُتتالية .. الذي رعى حفلها دون عِلمِها .. بعد أن قرأ مرّةً ما كتبَتْ بحفل تأبين قريب.

فأدهشه حضورها حتى تقصّى أخبارها ليعلمَ أنها تحلم بإطلاق رواية لكنها لا تمتلك مالاً لنشرها ..

اشترى صفحة في جريدة نَشَرَ بها خبر تبنّي المركز الثقافيّ للمواهبِ الجدد .. وبأنه على الرّاغبين التّقدُّم للمسابقة خلال أسبوع .. لِتُنشَرَ رواية الفائزعلى حساب دور النّشر تحت عنوان جائزة أفضل موهبه جديدة .

وبعد أن علمتْ بفوزها عند المثول أمام اللّجنة مع كتابها طُلِبَ إليها أن تُعِدَّ فقرات تقديم الحفل كاملة لتختمه بتوقيع كتابها فيُطلق بالأسواق حاملاً اسمها للعلن ..

دون أن تعلم هي بأنَّ ذات الاسم الذي وقف خلف كواليس نجاحها و كان الرّاعي الوحيد لكل شيء .. هو مَن كان سَبَب عافيتها.

أدهشته فتبنى اسمها بنشرِ كتابها سرّاً .. ظنَّ بأنه لم يمنحها سوى كتاب .. لكنه مؤخراً علم بأنه بإدخالها المستشفى منحها حياة واسماً يعيش أطول من اسم كاتب .. حتى أهداها قلماً وكأنه يقول : سأغدو قلمكِ.

طبعاً التقاها مِراراً أثناء مرضها لكن بالتّوقيت الذي كانت به بين غيبوبة وصحو .. إذ لم تكن قادرة على إقامة حوار معه وأكثر ما يؤلمها أنها لم ترَ ملامحه إلا من خلال صورته في الجريدة .. لكنها سمحت لنفسها بتخيّل تقاسيمه .. وحتى أفكاره .

فقد اختفى بلحظة صحوها حتى ما عاد يأتيها بالورود إلى أن أرسل إليها في يوم تخريجها تلك العلبة الفاخرة من الشوكولاتة .. حاملةً على كتفها وردة بيضاء تعانقُ قلماً يحمل اسم روايتها.

لم تكن تلك الهواتف اللّيليّة إلا لتخبرها بموتِ أخيه الذي قضى زمناً يعمل في الغربة .. وحين أتى مع كلّ ما جمع ليفاخرَ بهويّته اغتالوه في وطنه بعد أن فشلوا باغتيال وطنيّته.

تركتْ كل شيء وراءها لتطلب سيّارة أجرة وتنطلق إلى حيث يُنقل الجثمان، كانتْ في موقف صعب .. مَن هي لتستطيع الانسلال وسط موكب كهذا .. حشوده أصفار.. مرافقته أصفار .. وطريقة موته أيضاً ستبقى غامضةً كما الأصفار.

هي لا تعلم بأنّ صورةً ليدٍ فوق جبينها منحتها جواز سفر إلى كلّ مكان تقصده.

على بُعدِ بضعةِ كيلو مترات من الجنازة كانت أصوات الكشّافة تعزف لحناً حزيناً .. دوى الألم بقلبها وسَرَتْ قشعريرة بجسدها أعادتها الى أحضان مَن رحلوا مِن أهلها .. حتى هزَّ الفقد وجدانها والذاكرة..حزنت لأنه حزين .. وحزنت لأنها ستلتقيه لأول مرة لتعزّيه بدل أن تشكره.

انسلّتْ بين النساء الموشّحاتِ بالسوادِ .. بصَمتٍ كما رزانة حزنهنَّ المهيب .. دخل الحزن الكنيسة دون أن تلمحه .. وقفت قرب الباب لا لأنها لم تجد مكاناً إنما لأنها تحترم بأنّ لكلّ موقعه .. وموقعها ليس سوى عزاء سريع على هامش حزنه .. فمن هي لتكون متوسّطةً الحضور .

ها هي تنظرإلى كل من يدخل ليأخذ مكانه بصمت .. لم ترَه .. ما ظنّت بأنها قادرة على تعزيته مُصافحَةً .. لذا أكثر ما تمنَّته أن يراها ليعلم بأنها شاركتْ واجب عزائه.

بينما هي تدقِّقُ بملامح السّواد الرّسميّة من الخلف بحثاً عن قامةٍ كقامته في الصّفوف الأولى بعد أن أصبحتِ الجنازة على مشارف النهاية .. يعبر رجل أمامها ليخرج على عجلٍ من الكنيسة وكأنّه أمام ترتيب أمر لا يُتقِنه سواه أو أنّه خرج لإطلاقِ إيعازٍ ما فقط .. ليعودَ بذات السّرعة إلى مكانه بعد أن قضى أقلّ من دقيقة خارج الكنيسة .

عبر الحزن من أمامها بقامته الفارعة .. أكتافه المَمْشوقة وملامحه الجادّة .. لكنها لم تلتفت إلا لرائحة تبغه الغريبة التي تخزَّنت بملابسه .. كأنه عبر ليرفع التبغ إلى مرتبة أثمن العطور أمام حاسّة شمّها .. حتى حَبَسَتْ أنفاسها ريثما يعود لتكون قادرة على أخذ نفس أعمق يؤكِّد أنَّ ما اشتمَّته بعبوره ليس سوى دخان.

تلك الرّائحة التي لا تحمل سوى اسم تبغ لكنها تأبى الوصف لكثرة ما تحمل من غرابةٍ .

انتهتْ مراسم الجنازة لينتقل الجميع إلى صالة العزاء .. خرجت مسرعةً كيلا تضطرّ للسّير بموكب بطيء

وحدها .. فلا أحد يعرفها سواه لتصل قبل الجيمع تنتظر على حافة الطريق ريثما يأخذ كل مكانه .

لا مكان للفوضى .. فحيث تحلُّ الأصفار يأخذ الانضباط موقعه بدقة .

كانت تسبر ملامح الحزن الراقي في تقاسيم وجه النّساء وهنَّ يَعبُرنَ بصَمتٍ رزين حتى أحسَّتْ بحرارة قرب جسدها .. تقدّمت خطوة نحو الأمام دون أن تلتفتَ لتفسحَ طريقاً لعبورأحدهم وإذا برائحةِ تبغه تملأ روحها مرةً أخرى .

أيّة مصادفة هذه تعبرها مرّتين لتشعر فجأةً برغبةٍ عارمةٍ بالكتابة.

هو الذي يستطيع العبور من أوسع الطرقات .. لم يعبر سوى أضيقها .. قربها .

بعد أن أصبح الجميع داخل الصّالة تدخل بكامل كبريائها المُتَّزِن في صفّ المُعَزّين .. برأسها المرفوع .. وقوامها الممشوق الذي أضفى على ثوبها جمالاً حتى بدا وكأنه من أشهر العلامات التجاريّة،وشعرها الغجريّ

بخصلهِ المُتمـرِّدة علـى كتفيها يمنحهـا إطلالـة مميّـزة ببساطة وأناقة معاً .

عـبرتْ أمامـه بـزمن عبـوره وراءهـا .. تاركـةً بعضـاً منهـا يحاكيـه بعد خروجها .. لتركب سيّارة الأجرة وتنطلق نحو منزلها بعد نهارٍ مليءٍ بالواجب لم تتلفظ به سوى بعبارة مختزلة (آلمني مصابكم) زادتها عشقاً لذاك القلم الذهبيّ .. لتخرجه من حقيبة يدها كأنها تبثّ في حبره الحنين وهي تضرب موعداً معه بعد حين ..

وقبل أن تصل السيّارة إلى القرية يرنّ هاتفها .. رقم بلا اسم .. ما أن تفتح خطّاً حتى يخبرها مَن في الطرف الآخر أن عليها العودة للمكوث في الفندق الذي يُقام العزاء بصالته لأنّ عليها تحضير ما تقول في حفل التأبين بعد ثلاثة أيام .

صرخت بأعلى صوتها وكأنها تُهَنّيء أحدهم .. لتأمر سائق التاكسي بالعودة والسّعادة تملأ قلبها نشوة .

(١٣)

سورية يا حبيبتي .. آتٍ أنا ...

هناك وعلى مقربة من مدخل الصالة كانت فتاة تنتظرها لترافقها إلى غرفتها.

كانت الغرفة فاخرة إلى حدّ خَشِيَتْ أن يُفشلها التَّرَف باستحضار مشاعر الحزن .. ستائرها مخمليّة خمريّة .. سريرها مُزهِر مُبهِج .. تُطِلُّ نافذتها الكبيرة جداً على حديقة الفندق .. بالقرب منها طاولة مدوّرة ملفتة وكرسيّ دوّار أنيق ..

أما هذه الأوراق المُفضَّضة الأطراف على الطّاولة والتي اختيرت بدقَّة فقد تنجح باستفزازها ككاتبة .

بينما هي تسبر المكان .. تدقِّق بالتَّفاصيل يرنّ هاتفها برقمٍ دون اسم من جديد ..

ما أن تفتح خطّها وقبل أن تنطق بكلمة يأتيها صوت الحزن قائلاً : أتمنى أن تقضي وقتاً طيّباً لتكوني مُستعدّة لمهمة أوكَلْتها إليكِ بنفسي .. فأرجو أن أنجحَ بكِ

لكنها رغم صوته المتقطِّع الحزين لم تكن قادرةً على إخفاءِ سعادتها ..

قالت : أنتَ يا سيِّدي مُجدَّداً .. إنّي أعجزعن شكرك على كلّ ما قدّمتَ لي .

قاطعها : تستحقّينه.

ردّتْ : وهذا شرف كبير لي أيضاً أن تختارني لأكتب في هذا الحفل وحدي فأتمنى أن أكون أهلاً لذلك.

قال : أثقُ بكِ

قالت : لو قضيتُ عمري في كتابةِ فرحتي بما خصصتني به من فخر لن أفيكَ حقّكَ .

قال : أنتِ كاتبة تملكينَ مِنَ المشاعر ما يجعلني أثق بكِ عند التّاسعه مساءً وبعد انتهاء موعد العزاء تواجدي في الصّالة لنتحدَّث بشأنِ ترتيباتِ الحفل .. أنا الآن مُستعجِل فاعذريني .. لا أحدَ يستطيعُ القيام بما أقوم به .. فأنا مضطرّ أن أكون بالعزاءِ وأن أرتِّب كل شيء خارجه أيضاً .. نلتقي .

يا إله السّماوات .. كم مِنَ الحماقة بَسَطَتْ أمامَ هذا الرّجل باتِّصالٍ واحد تراه ندِمَ لاختيارها .. هو الذي يُعوِّلُ

على مشاعرها .. كيف تُحَمِّله مع أوّل اتصال هذا الكمّ من البَهْجَةِ ،كيف لم تُعبِّر عن أسفِها وحزنِها لمصابه ولو بكلمة .. وانفلتت تعبيراً عن فرَحِها دون توقف .

ما أصعب خيانة الحَدْسِ والحواس

خيانة تكفيها للسّهر ليالٍ تحت تأثيرِ الخجل

الخجل منه .. والخجل بها

حين يأتي صوت الحزن مُباغتاً لهفتها والشّوق معاً .. عليها أن تصغي ..

أن ترفعَ قبّعتها وتنحني ..

كم كان عليها أن تُمَرِّن حواسها المُتلهِّفة للحوار كي تصمتَ أمام ثقافة حزنه

هاهي ذي وخيانة لم تعهدها بذاتها .. وحدس يغيب فتقضي الليل معاتبةً طفولتها

طفولتها التي ترتدي ثوبَ الأمومَةِ متى استضافتْ ألماً فماذا عليها أن ترتدي اليوم وقد عَبَثَتِ الفوضى بخزائِنها فراحَتْ تُفرِغُها مِنْ أثوابها واحداً تِلوَ الآخر لتجْثو كطفلٍ كئيبٍ مُعانِقاً رُكبتيهِ العاريَتين .. مُسْتدِرّاً عواطفَ الأُمومَةِ تلثم جبينَ الألمِ والأملِ بآنٍ معاً .

كيف لم تسأله إن هوَ بخير .. ؟
وكيف تناسَتْ بأنَّ الخير يتناقص نسبيّاً مع ازديادِ الفقد..؟
يوقظها صمته الرزين .. وتهزّها ثقافة رقيّه للتّماشي مع فرحها وهي تنثر حواسها التي شعرت بالأمان بوجوده حتى نامتْ على كتفيه..
كم كان بحاجةٍ لِحَدسِها يلفُّ حزنه العميق .. لكنّه برقيٍّ دَثّرَ حواسها وراح يُغنّي لها أعذب الألحان لِتهنأ بنومٍ عميق .
تناسى في حَضرتِها حزنه .. في حين نَسِيَتْ أن تصحوَ لأجله فلم تلحظ كم كان صوته بحاجة للبكاء بين غصّة وأخرى
يا أصدقائي ... يا رفاقي ... يا أحِبَّتي أنا أتألّم
هكذا صرخ صمته فلِمَن تُقدِّم اعتذاراتها اليوم...!!!
يا أصدقائي ... يارفاقي ... يا أحِبَّتي ... ياااا حبيبتي أنا حزين.
هكذا صرخ صمته .. فلِمَنْ تقدِّم عزاءها اليوم ...!!!

كان صوته حزيناً فخَجِل عنها
وكان صوتها حالماً فنسيَ أن يحزنَ معهُ
عَبَرَ قربَ مساحة ألمه دون أن يشاركه ولو بتساؤل
دون أن يتركَ له مساحة يتمدَّد بها
راحتْ تقدِّم له المثلّجات وهو يسألُ عن مُسَكّن للألم
لتصرخ في وحدتها .. وتتناول أوّل ورقة تطالها يدها وتكتب :
يا أوجاعَ العالم .. أنا أعتذر ..!!!!!
يا آلامَ العالم .. أنا خَجْلى .. !!!!!!!!!!
في حضرتِكَ ارتدتْ روحي ثوبَ الطّفولةِ لفوق الرُّكبتين
فأين أنتِ حواسيَ اليوم ..؟
لماذا حين كبرتِ جيلاً معهم غطّيتِ عينيك ..!
كان عليك أن تُغطّي رُكبتيك .. لأنَّ الأثواب القصيرة أثواب فرح.. فبماذا تفاخرينَ اليوم ...!!!
ولِمَ تَصْحينَ الآن .. ! .
لِمَ أنتِ عاتبة كلّ هذا العتب ..!!
هم الذين لم يعتبوا على غباءِ طفولتكِ .. فقط لأنهم أحبّوكِ طفلةً .

فماذا أهديكَ بعد اليوم صديقي ..؟؟؟؟؟

ها هي تستعدُّ للمثول أمامه بعد دقائق .. كيف تُعَبِّر عن أسفها باختصار .. كيف تُنسيه غباءها .. هو من ألقى أمامها القليل من الكتب والكثير من الأوراق وحين أراد مكافأتها أهداها قلماً وانصَرَف.

كيف لهذا الشّخص الغريب تماماً عن الذّاكرة أن يَهْتمَّ بهذا الكمّ من الحاضر ويجرؤ على إمساكِها قلماً لترسم على أوراقٍ بيضاء مُستقبَلهُ معها دون أن يَشرحَ لها لعبة الألوان .

تُطِلُّ كفراشة .. تخطو مُسرعة وكأنّها تطير فوق الأرض تارةً وتحطّ تارةً.. تمسك بيدها مجموعة من الأوراق وقلماً .. دون حقيبة يد بدت كتلميذة صغيرة فوضويّة مُهذّبة .. لترى الحزن يجلس متوسّطاً مجموعةً من الرّجال .. تبْطئ مشيتها علّها تخفي بعض فرحها .. تصل رائحة تبغه حواسها وهي على بعد خطوات .. ينهض الحزن مصافحاً .. بينما يكتفي بقيّة الرّجال بالإشارة إليها بالجلوس .. وردّ التّحيّة .

انتقل ليجلس بمحاذاتها وهو يُخرِجُ ورقةً صغيرةً من جيبه .. يحدِّثها بصوتٍ خافتٍ ورائحةٍ صارخةٍ ..حتى شعرتْ بأنها تودّ عناقه .. بدا ألمه كبيراً .. جرحه عميقاً .. وفقده جَللاً.

تمَنتْ لو استطاعتْ أن تحمله وتطير به من هذا الحزن الذي لم تتمنّ يوماً أن تراه به .

بعد أن انتهى من تدوين برنامج الحفل على أوراقها عاد إلى مكانه مواجهاً لها ..

لم تكن الجلّسة تخلو منه .. فكان يملؤها بحديثه المُثَقَّف وعزفه المنفرد على الروح .. فيأخذها مع بقيّة الحضور في نزهة إلى بساتين اللّغة وأنهار الأفكار التي تودّ لو تنهل منها حتى ترتوي .. لولا أنها كانت تنصرف لبعض الأحيان لتمضي بأحلامها .. فتعود مُجدَّداً لتتابع تشديد الحصار على القلب والعقل المُعتَقَلَين مُسبقاً في زنزانة منفردة للذّاكرة .

فتحلم لو يُقتطَع هذا الجزء من الحاضر ليأتي في وقت أفضل للمستقبل حيث تكون جاهزة للامتلاء منه أكثر...

أو لو أنّه أتى قبل موعده بذاكرة .انتهى اللِّقاء سريعاً .. لم تكتفِ بعد من ثقافته .. تمنَّت لو تَجَمَّد الزمن ..

نهضَ الحزن لينصرف دون أن يودِّعها .. دون أن يُحدِّد موعداً للقاءٍ جديدٍ .. حتى أنه لم يطلب أن يقرأ ما سوف تكتب قبل بدءِ الحفل ..

التفتَ عند الباب الخارجيّ وقال : عمتم مساءً.

دون أن ينظر إليها حتى كما لو أنها لم تكن موجودة .

ها هي في غرفتها الفاخرة مجدداً تجلس على حافَّة السّرير معانقةً ركبتيها .. مرتديةً ذاكرتها الخريفيّة ..

مُذ غيَّرَتْ عاداتها واحدة تلو الأخرى لم تكتب ليلاً حتى أنّها لم تعُدْ تطيل السَّهر .

اليوم .. وهي في مهمّة ستبذل قصارى عاطفتها لتنجح في رفعها إلى مرتبة النّجوم والأصفار حضوراً.

يقاطع أفكارها رقم دون اسم على هاتفها .. لا تجيب خاصّةً وأنها بعد ذاك الاتِّصال من الأصفار المتتالية لم يَفُتها تسجيل اسمه على هاتفها.

يضجُّ الهاتف مِراراً وتكراراً بالرّنين حتى تفصله ظنّاً منها بأن انشغالها بالكتابة الآن هو أهمّ حدث عليها الاكتراث به .. إلى أن يُقرَعَ باب غرفتها.

تفتح الباب لترى سيّدة بالغة الجمال تقف قرب حقيبة كبيرة ..

السّيدة : عمتِ مساءً.

هي : عمتِ مساءً سيِّدتي الفاتنة.

السّيدة .. تبتسم .. : هذه الحقيبة لك .. فيها كل ما تحتاجين .. من اليوم وحتى حفل التّأبين، بها ثوب للحفل .. أتمنى أن يكون على مقاسك تماماً .. حذاء مناسب .. ثياب للنوم .. وجهاز هاتف صغير .. أرجو أن تردّي على كلّ الأرقام التي تطلبه .. فلا يعلم رقمه سوى المعنيّين بحفل التّأبين .

كما وتستطيعين الاتصال بأيّ منهم للاستفسار أو طلب أي شيء يخصّ الحفل أويخصّ احتياجاتك الشّخصيّة .

هي : أشكرك سيّدتي .. تصوّري لم أنتبه أنني لا أملك ثوباً للنوم .. لا أظنّني سأحتاجه .. فأنا أرغب بمواصلة الكتابة حتى موعد الحفل .

السّيدة : لا .. نومك مهمّ لتكوني بكامل تألّقك عزيزتي الكاتبة .. فنحن لا نطمع بكلماتك فقط .. إنما بحضورك المتميِّز بثقةٍ .. كبرياءٍ .. وحنين.

هي : يا إلهي هذا الوصف كثير عليّ .. يفرحني منك .. لكنّه يُحَمِّلني مسؤوليّةً إضافيَّةً .. أرجو ألا أخذلكم جميعاً.

السّيدة : حدَّثوني عنكِ كثيراً .. عن عشقك للكتابة .. وعن فصلك الخريفيّ .. تصوّري يغتالون زوجي في الخريف لتهديه حفلاً .. بينما يهديك شهرةً دون أن يدري .

هي : آآآآه .. يا إلهي .. أنتِ سيّدتي ..!!!!

السيّدة : أنا زوجة الشّهيد.

هي : اعذريني يا سيّدة الحزن .. سيّدة اللّباقة .. وسيّدة التّواضع .. أنتِ كلّكِ تقفين أمام باب غرفتي .. تحملين حقيبةً لي .. و تهتمّين بما يخصّ راحتي .

لا أعلم إن كنت أتجرّأ على دعوتك للدّخول .. وأنا في ضيافتكم .. أو ضيافة حزنكم .

السّيدة : في الحقيقة ما أتيتُ إلا لأشاركك فنجاناً من القهوة .. إن كان وقتك يسمح .. فأنتِ بحاجة لمعلومات

عن زوجي لتتمكني من الكتابة دون تكلُّف .. كي تستطيعي إقناع الحضور .

هي : لم أكن أنتظر سوى أن يمدّني أحدهم ببعض المعلومات كي أبدأ .. لكنني ما ظننتُ أبدا أن أحصل عليها من حضرتك .. تفضّلي .. فكلّي آذان صاغية .

السيّدة : في الحقيقة أنا التي أصَرّيتُ على لقائك .. كان من الممكن أن يخبرك ما أُخبرك أيّ صديق .. لكنني وددت التّقرُّب منكِ أكثر لأشعُرَ تماماً بكلّ كلمة لحظة الإلقاء .

هي : أقسم بأنّكِ كاتبة.

السيّدة : كان لي بعض الاهتمامات الأدبيّة حتى تبنّيتُ زاويةً في مجلةٍ عربيّةٍ لأكثر من سبعة أعوام .. لكنهم حين حاولوا ضمّ زوجي إلى صفوفهم وفشلوا أغلقوا زاويتي تحدّياً .. لم تكن إلا إشارة لنعلم بأنّهم قادرون على الوصول إلينا وقطع كل الطّرق علينا .

هي : لذا عُدتمْ ..؟

السيّدة : لا .. بل عدنا لأن زوجي أراد أن يشارك سورية أنفاسها .. غصّاتها .. يداوي جنودها .. ويضمّد جراحها

تاركاً ما جمعَ من غصّاتِ غربة وراء الحدود ،لكنه ما إن وضعَ قدمه على ترابها حتى قنصوه على مرأى حزنها .

هي : آه كم يوجِعُ ما تقولين سيّدتي .. مرّةً يوجع اغتراباً .. ومرّة يوجع اغتيالاً .. وما بين الوجع والآخر سوى غصّة تدوم أبداً.

السيّدة : أرسَلوا إليه خبراً بألا يأتي .. لكنّه كان توّاقاً لموتٍ كهذا .. فَسَبَقَ بوصوله وصول الخبر .

هي : لكن أنتِ ..

السيّدة : أنا من أصْبَحَتِ الآن توّاقة للقلم أكثر مِن أيّ شيء .. أحياناً صديقتي لا يقهر السّلاح إلا قلمٌ شريفٌ.

هي : ستحاربيهم بقلمكِ..؟

السيّدة : بل بقلمكِ

هي : يا إلهي ..!!!!!

السيّدة : بعد الانتهاء من طقوس الواجب والعزاء سيكون لنا لقاء طويل .. ثقي بي .. ما مات زوجي إلا لثقته بأن سورية ستحييه بمجدها .. أم أنكِ خائفة من أن يتعرّضوا لكِ بسوء ..؟

هـي : مـا كنـت يومـاً أغلـى مِمَّـن قـدّموا أرواحهـم وهـم مشرعوّ صدورهم للرّصاص .. فقط لأنهم سوريّو الهويّة .. ولا أظنّ هويّتي أرخص من هـويّتهم .. وإن كنت من طبقة لا تتساوى بطبقاتهم .

السيدة : ما أخطأ قيصر باختيارك .. يبدو أنه ما اختار إلا لبؤة في ثوب أُنثى ..

قال لي في وصفِكِ مُختصِراً : فتاة لا يليق بها السّكون مليئة بالحركةِ .. رَفَعَتْ تاءَ التّأنيثِ إلى مرتبة سامية .. تليق بها القيادة .. تعلم كيف تصمُتُ ومتى تتكلّم .

ما أظنُّ هناك وصف أبلغ من وصف قيصر .. ولا نظرة أدقُّ من نظرته .. لذا بنيتُ على لقائنا آمالاً .. ولن ينتهي الكلام .. أسعدني الحوار معك .. سأبقى توّاقة.. ريثما نلتقي .

غادر الحزن الرَّزين تاركاً وراءه دموعاً حارة لم تذرف بعد .. وغصّات بقيَتْ في الحناجر وفي القلوب.

(١٤)

فأيّ وطن نساؤه جنود .. أقلامهُ بنادق ورجالهُ شموس سِوى وطني

هـا هـي مجـدَّداً وأبـواب الحـزن بقلبهـا مفقوحـة علـى مصـراعيها .. مشـرعة لهبـوبٍ عاصفٍ مِنَ الشَّجَنِ .. يَقتلعُ الأوراقَ ليغـرسَ زهـرةً على حافةِ مـوت مشـرِّف في المطـالع والقوافي،تـدفَّقتِ الكلمـات كسـيلٍ جـارفٍ لا يعـرفُ الاستكانة بعد أن ملأتها السيّدة ألماً .. وأملاً

سوريّة يا حبيبتي .. آتٍ أنا ..

انقضَت الأيام الثّلاثة وهـي منكبَّة على أوراقٍ مُفضَّضة .. تخطّ بقلمٍ ذهبيٍ شجناً أسطوريّاً أنساها الزّمان والمكان بعد أن استبدلت بنهارها الليل الأكثر هدوءاً .. الأكثر إلهاماً .. والأكثر شجناً لِتسْتفيق من ركنها الحزين على الأصفار تهاتفها صبيحة جمعة لتتأكّد من انتهائها .. و إن كانت بحاجة لأي شيء .. فساعات قلائل تفصلها عن موعد الظّهور الرسمي لحروفها .. لم ترضَ الأصفار بأن

تقرأ أيّ جزء من كتاباتها .. رَغِبَتْ بوقع الألم يهزّها دفعة واحدةً.

أيّها القيصر .. كم كانتْ أمّك هانِئةً بحملِك تسعة شهور في أحشائها .. كم كان منك الآن حاضر في ذاك الوقت لِتنسبَ إليك اسماً لم يكن يوماً لسواك.

كم تشبهنا الأسماء .. لكنّك قد فقتَ معاني الأسامي بقيصريَّتك هذه .. مُبارك عليك اسمك .. ومُبارك عليَّ اسمك .. يا سيّدي القيصر.

ها هي تدخل بعد أن أخذ الجميع أماكنهم .. تعبر فوق السّجّاد الخمريّ بسوادها الحزين .. بين يديها مجموعة مفضّضة من الأوراق ..

قلماً مُذهَّباً .. وقلباً

عَبَرَتْ كما الحياة مليئة بالغصّاتِ

وقفت كسنديانة شامخة .. ترتجلُ ما لم يُكتب

دموعها المتلألئة على وجنتيها طفولةَ مشاعر

صوتها الثائر لا تنطفئ له شعلة .. ولغتها المِطواعة شدّت على أيدي الحضور لتخطو بهم عبر مساحة الألم فتوصلهم

إلى بـرّ الأمـان حتـى غـدا قلـب الشّـهيد مسـتقرّاً إذْ بلـغَ مُبتغاه.

كانـت بعبورهـا .. وطنـاً.. بوقفتهـا وطنـاً.. بصـوتها وطنـاً .. بصدقها وطناً وبألمها وطناً.

بسخائها وطناً.. وبعنفوانها وطناً

فأيّ وطن نساؤه جنود .. أقلامه بنادق ورجاله شموس سِوى وطني

انتهى الحفل لتعود مرّة أخرى إلى تلك الغرفة التي ذُهِلَتْ حين رأتها بِحِلَّة جديدة كلّياً .

نوافذها خَلَعَتْ عنها لونَ الدّم القاني لترتدي ثوباً كزرقة السّماءِ الصّافيه...

فراشـها غـاصَ تحـتَ قمـاشٍ حريـريٍّ أخـذ شـكل أمـواج البحر ...

وضـوء خافـت برتقـاليّ قـرب حافـة السّـرير أضـافَ علـى اللّوحة مشهد الغروب

بينما طاولتها المستديرة خَلعَتْ كعبها العالي لتنخفضَ قليلا"و كرسيّ هزّاز من الخيزران اسْتلقتْ فوقه وسادة من الرّيش بغنجٍ ودلال حلَّ مكان ذاك الكرسيّ الأنيق أغلقت باباً على دهشتها .. وراحت ترقص على إيقاع دقّات قلبها المتسارعة .. فاردَةً جناحيها كطائر النّورس حتى امتزجت دموعها المنهمرة بعرقها .. لتسقطَ كريشةٍ على السّجّادة البنفسجيّة مُحْتضِنَةً ما نُثِرَ عليها من أزهار بيضاء وتغطّ في نوم عميق.

هاتِفها يصرخ دون توقّف .. والنوم يغتال جفونها .. لا تريد أن تصحو من هذا الحلم وهي مستلقية على شاطيء الأمان.

ترفع يدها الكسلى نحو حقيبة يدها الملقاة قرب السّرير لِتسْكِتَ ذاك الجهاز الصّغير الذي بدا أعند منها لتفاجأ باسمه.

نطقَ القيصر : أسعد الله مساءَكِ يامَنْ أثلجتِ قلوبنا

تجيب : يا أيّها القيصر مِنْ أيّ جبالٍ انحدرتَ لتملأ ذاك الوادي السّحيق الذي كُنتُهُ .. فأغدو بحراً.

ردَّ القيصـر : لا تشـعريني بـأني تورَّطـتُ بـكِ حتـى ماعُـدْتُ أجد جواباً يليقُ ببراءة طفولتكِ .. كيفَ قضيتِ اللّيل ؟

هي : رقصاً.

هـو .. بعـد ضـحكة طويلـة : أنـا لا أمـزح فـلا تحـاوريني ككاتبـة .. ألم يُتعِبَـكِ الأدب بعـد .. ترَجّلـي عـن عرشِـهِ وحاوريني ببساطة .

هــي : لكــنني لا أمــزح .. بعــد أن عــدت والألم يعتلــيني أذهلني مشهد غرفتي الجديد فرُحْتُ أرقص حتى غفوت

هو : على أية موسيقا .. ؟؟ .. أقصد أتخيلك لا ترقصين إلا على موسيقا عالميّة.

هــي : بـل لا أرقـص إلا حـين أبتلـع الكـلام .. حـين أشـعر بـأنني توّاقـة للصّـراخ .. حـين تخـتلط مشـاعري ومـا مِـنْ كلام يعبِّرعن جوهَرِها أرقصُ قصيدةً

هو : تقصدين .. ترقصين كقصيدةٍ

هي : بل أرقصُ قصيدةً كما لو أنني أكتبها بجسدي في الفضاء إذ لا يكفيني حبر ولا أوراق.

هو : لكنني ظننتك ارْتجَلتِ حتى فرغتِ أدباً .. نظراً لما بذلتِ مِنْ مشاعر لامَسَتْ فخرنا بكِ

هـي : أنـا بارتجـالي امـتلأت حيـاةً .. وبنظـراتِ رضـاكم فخراً .. حتى عُدْتُ إلى غرفتي ثمِلةً.
لأُفاجـأ بهـديّتك الرّائعـه تـذكـرّني بعمـري الـذي انقضـى أحلاماً مُمزّقةً.
هـو : عـن أيّة هديّة تتحـدَّثين .. ؟ .. وهـل قـدّمتُ مـا يرتقـي لمرتبة الأحلام .. !
هي : كفاكَ تواضُعاً يا سيّدي .. بحقّ متـى حَضَّرتَ كـل ذلك ؟
هو : اذا استمرَّيتِ بهذه الأسئلة ستتعبين .. اعلمي أن طـاقم الفندق كـاملاً متواجـد علـى أهـبِ الاستعداد لمـلء حياتـك حياةً من الآن وإلى آخر العمر.
هي : وهل سأبقى هنا إلى آخر العمر .. !!!
أقصد بضيافتكم .. ؟
هو : ما عدتِ بضيافتنا .. فقد أصبَحنا جميعاً بضيافتك.
هي : لم أفهم .
هو : لي جناح بهذا الفندق أمكـث فيـه عنـد تواجدي هنـا .. غداً ستنتقلين إليه وبين الحـين والآخـر تطِلُّ عليك زوجـة

أخـي لتتـابعَ معـكِ مـا لمْ تبـدَأهُ بعـد .. أقصـد مـا حـدّثتك بشأنه بالنسبة لموضوع حربك الجديدة.

بينمـا يكـون عمّـال الفنـدق تحـت تصـرّفك علـى مـدار السّاعة.

هي : و أنت ..؟

هو : سأسافر غداً عند منتصف الليل لذا لن أحتاجه.

هي : تسافر .. !! .. أقصد إلى أين .. ؟ .. أقصد وأنا ..!؟

هو : لا تكثري من الأسئله فلن تفيدك بشيء .. أنا دائم التّرحال.

هي : لكن كيف وأنت ..!

هو : الوطن زادي .. وحين أبتعد عنه لا أبتعد إلا لأجله

دعكِ مني .. أأراكِ اليوم .. ؟

هي : بالتأكيد .. متى ترغب.

هو : لا متى أرغب .. إنما متى أستطيع لأنني دائماً أرغب

هي : وأنا دائماً حاضرة.

هو : لا أحبّ أن تكلّميني بهذه الطّريقة .. فحرّيتك ليست ملكاً لسواك وما أقدّمه ليس إلا ما تستحقّينه بجدارة .. أنا فقط أضعك بمكانك الصّحيح .. ودائماً أنجح بك فلا

تتواضعي أمامي .. كبرياؤك كان خطوتك الأولى نحوي .. لأجلي حافظي على هذا الكبرياء .. يليق بك.

هي : آمل أن يكون لديّ ساعة شاغرة في مفكّرتي وإلا سوف أضطرُّ للاعتذار عن موعدي معك إلى أن تعود .. ها قد ردَّ كبريائي.

هو .. يضحك : أحبّ طفولتك .. هكذا أنت بأبهى حُلّة، ما رأيك بغرفتك .. هل أحببتِ زرقة سمائها .. بحرها .. و مشهد غروبها ؟

هي : تشبهك بأسرار غموضها .. هدوء ألوانها .. وامتداد أفقها لكنني أخشى الغروب .. تمنيت لو كان شروقاً.

هو : إذاً نامي الآن .. سننطلق باكراً لنكونَ قبل الشّروق على الشّاطئ .. أحبّ أن أراك في مكان فسيح .. طفلةً تلعبين بالرّمل والماء .. سنرى أي مشهد سيأسرك أكثر سأطير غداً بعد منتصف الليل من مطار اللاذقيّة لذا سيكون لدينا مُتّسع من الوقت لنقضيه على الشّاطىء.. أحبّ أن تكوني آخر من أراه .

هي : أخشى إن عَبَّرْتُ عن امتناتي أن تطالِبَني بالكبرياء مُجَدَّداً .. لذا سأكتفي بالقول هاتفني قبل موعد الانطلاق بساعة لأرى إن كانت مواعيدي تسمح باللّقاء

هو : ماذا ستلبسين .. ؟ .. لا تقولي ثوب الحفل

هي : لم أفكّر بالأمر.

هو : لا تفكّري كثيراً يكفي أن تفتحي خزانتك .. عِمْتِ مساءً يا صغيرتي.

هي : عِ .. مْ .. تَ .. مساءً

وقفت أمام الخزانة تسبر الغرفة مجدّداً .. لتتخيل ما قد يكون مُخبَّأً بداخلها من أسرار هذا البحر الذي كان هادئا قبل أن يضربه ذاكَ الإعصار

(١٥)

هـا هـي علـى شـاطىء رملـيٍّ .. تـركـض كغزالـةٍ حينـاً .. وأحياناً تطيرُ كفراشةٍ .. كم تبدو جميلة في هذا الأفق المُمْتـدِّ .. حـدودها إشـراقة صـبح قبـل شمسِـه .. شـفافة كما لـو أنهـا مجـرّد حلـم .. يعشـقها لكنـه لا يسـتطيع أن يلامسـها بأصـابعه .. تـذوبُ كقطعـةِ جليـدٍ نقيَّـةٍ .. لايبقـى منها سـوى ابتسـامة .. وذاك الكبرياء .. فيُحـارُ بجمعِ ذرّاتِ تكوينها .

متى غاصَتْ إلى هـذا العمـق مـن وجدانـه لتسـتقرّ في مسـام جلده اليوم كنقطةٍ على سطرٍ من صفحةٍ في أيّ كتاب .. مـرَّ بهـا مِـراراً لكنـه لم يتوقـف عنـدها أكثـر مـن زمـن فاصلة ..

اليـوم فقـط نظـر إليهـا وهـي تكتـب قصيدةً بلغـة الجسـد بين رملٍ.. بحرٍ.. وفضاءٍ..

أيّ مكـان يتسـع للغتهـا سـوى هـذا المكـان .. وأيّ مشـهد تملؤه ثقافة حياة أكثر من عفويّتها

تتبعثر بشعرها الفوضويّ وعينيها اللامعتين فرحاً لا يخلو من الألم على رمال الشّاطئ الذّهبيّة لتملأ الدّنيا من حوله سطوراً لم تكتب بعد.

قرأها تكبر أمامه .. قرأ صبرها وهو يُلوِّح من البعيد إصرارها وهو يخطو سريعاً نحوه، فأدرك إشاراتِ الاستفهام التي رُسِمَتْ وراء النّقطة .. لتطيل زمن التّوقُّف .. فتمنحه نفساً إضافيَّاً قبل الرّحيل.

حينها شَعَرَ وكأنّها تهزّه من غفوةٍ لتوقظه على حلم سقطَ منه سَهواً ، لِتحَوّل كلّ إشاراتِ الاستفهام والنّقاط التي مرَّ بها إلى إشارة تعجّب وهو يُغمِضُ عينيه لِلَحظاتٍ فلا تختفي ..

حاوَلَ أن يُجَزِّيءَ قلبه فرفضَ كي لا تتبعثر .. حينها أدرك أنها تحتلّه احتلالاً .

مَلأَهُ الحزن والفرح معاً وأطالَ الصّمتَ في حوارٍ له مع عينيها وهي ترمقه بطفولةٍ وأمومةٍ معاً .

ليَصْرَخ في سِرِّه : اعزفي صديقتي .. اعزفي فألحانُ الصَّبا في فؤادي أثملتني شوقاً إليكِ .. حاوري صمتي ببراءة عينيكِ واصْدَحي بأنشودَة الحياة التي لحَّنتِها من وحي

المسافة التي سوف تفصلنا قريباً .. فإني توّاق أن تمنحيني حقّ الاستماع وأنتِ تكبرين أمامي عاماً .. بينما أشيخُ شوقاً.. بعد أن تشعَّبَتْ عواطفي لتبحثَ عن الأملِ وها هي تتحدُ اليوم بعينيكِ في نظرةٍ واحدةٍ .

كان اللقاءُ قصيراً ونظرات عينيكِ الثابتة أصابَتِ الهدفَ بإتقانٍ .. كنتِ تبحثين في أعماقِ الكلماتِ حينَ أتلفظُ .. و تتجوَّلينَ بشفافيَّةٍ في حقولِ اللغة حين تتكلمين ..

بخفةٍ ومرونةٍ تسابقينَ الزّمن لتوصليني إلى عِشقٍ حَطّمَ قافيةَ القصائدِ .. و روّضَ بحورَ الشّعر ..

وأنا أقرأ في عينيكِ عشقاً أبَويّاً لحضوري .. بشوقِ الطُّفولةِ لِتسلَقِ أكتافي .. بينما تنصَهرينَ أمامي لِتتحِدي بي دون الاكتراث لأنوثتكِ و رجولتي

أعجبني التحَدّي .. وأدهشني الرّقيّ

وتكبرينَ قبلي .. ويزدادُ اصراري على التوحُّد بكِ .. التوغلِ بكِ .. الانصهارِ بكِ عناقك طويلاً وذرف الدّموع .

يامَنْ ما اشتهَتْ برجولتي سوى الأبوّة

كم تعلمين عن طفولتي الحائرة دون أمٍّ تحنو عليّ .. وأبٍ لمْ يَسْتشهد حتى تأكدَ بأنني أصبحتُ مشروع شهادة

ماذا أهديكِ وقد كبَّرتِني فجأةً باستلقائِكِ على الرِّمالِ بجَسَدِكِ الصّارخِ : كنْ أبي

شاهَدَ عقارب السّاعةِ في عينيها اللتين تنظران إليهِ بحزن أو بشفقةٍ وهي تتجه نحوه لتقول :

أما اشتقتَ للكلام ..!!!

أمْ أنكَ دعوتني لِتختبرَ كم تستطيع أن تصْمُتَ في حضرتي .. ؟

هو : ما صَمَتٌّ لحظةً صَدِّقيني .. ألمْ يَصِلكِ صوتي ..!

هي : بلى .. أأنتَ مَنْ كانَ يَصْرُخُ إذاً .. !!

ظننتُ هناكَ مَن يَغرَق .

هو : ما أخطأ ظنكِ أبداً..

حين تقرَّبتُ منكِ كنتُ أسعى أن أكونَ قارَب نجاتك .. أوصِلكِ إلى برِّ الأمان قبل أن أختفي .. لكنني اليوم شعرتُ بأنني أغرق فجأةً

هي : أنادِمٌ أنتَ على مَعْرفتي .. ؟؟؟

هو : أبداً .. على العكس.. أنتِ أغرَقتِني لِتخرجيني من رَتابةِ الحياةِ ..

فمـا فكـرتُ بالتجـديفِ إلا اليـوم .. لكـنني أخشـى أن تخونني شيخوختي .

هي : عن أيّةِ شيخوخةٍ تتحدّث .. ! ..

إلا إذا كنتَ تقيسُ عمرك نِسْبَةً لِلمَعْرفةِ التي تلمُّ بها

هو : حدِّثيني عنكِ .. إني توّاق للإبحارِ بكِ ..

وأنتِ تتحَوَّلين فجأةً من إعصارٍهائجٍ إلى قارَبِ نجاة

هي : أنا .. أسير .. أتعثر .. أسقط .. ثم أتابع المَسير

وأحاسيس متناقضه تنتابني لحظة وقوفي من جديد

شعور بالخَجَل مِمَّن رآني لحظة تعثري ..

شعور بالعزيمة لِمَنْ تحَدّى وقوفي مُجَدَّداً ..

شعور بالامتنانِ لِمَنْ ساعَدَ في خطوتي التالية ..

وآخر بالعتب لِمَنْ انتظرتهم طويلاً فغضّوا النظر ..

وشعور بالألم يبقى لي وحدي ..

لكن كم أستطيع الاحتفاظ بذاك الألم دون صراخ ..؟؟

خصوصاً وإنَّني مُجْبَرَة على مُتابَعَة السَّيرِ كي لا يَتعَثَرَ بيَ مَنْ يسيرونَ ورائي .. فأصبح عِبئاً على طريقِ الحياة .

يوصلني تحصيل مشاعري إلى شعورٍ بالإنفصام أحياناً ..

أنتَ لا تلحَظهُ .. لا يُهَدِّدُ وجودك .. لا يَسْتفِزّكَ .

يُباغِتني .. يُشْعِلني ناراً أرتدي وسطها كلّ عتاد حَرْبي .. أشهر أقوى أسلِحَتي وأطلق رصاصة الرَّحمة لأقتلَ واحداً مني .

قاطع انفعالها بنبرة دافئة أخمَدَتْ ثورة عاطفتها قائلا :

هناكَ مَنْ تربّوا وسط عائلةٍ بينَ الأبِ .. الأمِّ .. والإخوةِ لكنهم بقوا دونَ أهل .. فالأهلُ أكثر مِنْ تسمِيَةٍ نُطلقها على أشخاصٍ .. إنما هم كتف تسْنِدُ كتفاً لحظةَ تعثرٍ.. يد تمتدّ ليدٍ لتساعدَ على الوقوفِ.. وقلب يَشعرُ بألمِ الآخر قبلَ أن ينطقَ به .. وعندها لا نعود مجبرين على الاحتفاظ بالألم دون صراخ .. إذ لا تعود هناك حاجة للصُّراخِ أصلاً .

هي : من أين تستمِدُّ هذا الكمّ من الحنو .. !!

رغم إفصاحكَ عن حاجَتِكَ الملحَّة في طفولتِكَ وحتى رجولتِكَ لأمٍّ لم تعرفها .

هو : منك

هي : أنا .. كيف .. ؟

هو : حين رأيتك للمرة الأولى أكثر ما شدَّني إليك بَريق عينيك اللامع بحبٍّ لا يخلو من العَتبِ .. عتب الطفولة على أبوَّةٍ ما خَبِرَتْ سماتها يوماً .

هي : أمِنْ بريقِ عينيَّ خَبِرْتَ كلّ هذا ..!

هو : لا .. بريقُ عينيك الحزين أثارَ فضولي لأتقصّى كلّ أخبارك .

وحين عَلِمْتُ كم مِنْ ألمٍ عَبَرَكِ عادَ بَريقُ عينيكِ لِيَسْتقِرَّ بذاكِرَتي وكأنه بَصْمَتُكِ .

هي : كم يلزمنا من الصَّبر كي نكمِل المشوار ..!

وكم يلزمنا من النِّسيان كي نثق بالقدَر فنترك له ما تبقى لنا من كلماتٍ ليكتبها بقلمِهِ السّحريّ .. دونَ أنْ نقرأ َ.. فيقرأ آخرون ما كتِبَ عنا .. !

و كيفَ يَغيبُ أخوكَ لِنقرأ نحنُ ما كُتِبَ لهُ .. ؟

دون أن يَعْلَمَ بأنَّ ذاك الطريق المرسوم أمامه وهو على مَتنِ طائِرَةٍ هو طريق الموت .. وهو ما كتبه له القدر بقلمِهِ السِّحريِّ لِيَسْتقِرَّ حُلمه تحتَ ترابِ وطنٍ ... ما جاءَ إلا كرمى لهُ .

هو : لكنَّ الحياة لا زالت مُسْتمِرَّة

مُسْتمِرّة على الرّغم من أحزاننا الكثيرة على مَنْ نُحِبّ ..
على الرّغم من افتقاداتنا الكثيرة لمن نحب
... و رَفضِنا الدّائِم لوجودنا هكذا .

إنما نحن من نشعر بأننا افتقدنا جميع من حولنا متى عُدنا بذاكِرتِنا إلى شخصٍ افتقدناهُ سابقاً وكانَ لغيابه أثرٌ كبيرٌ على مواصلةِ حياتِنا.. لِنَجعَل من غيابه شمّاعة نلقي عليها كلّ أحزاننا وآلامنا .

يومياً تتسَللُ رعشة إلى بَدَني فأشعر برغبةٍ كبيرةٍ لاحتضان شخص كبير .. كبير إلى حدٍّ يسهلُ عليه احتضان همّي .. يَتسِعُ أحلامي .. ويقوى أمامَ ضَعفي
لكن أكثر ما أحتاجه الآن هو سماع صوت أخي
صوته الذي يدقّ مع عقاربِ ساعاتِ حزني وفرحي .. وأتنغص لغيابه عني.

هي : يا إلهي ما تقصَّدتُ أن أقاطعَ صمتكَ لأستدعيَ أوجاعكَ

هو : كيف سَمَحوا لأنفسهم أن يتجوّلوا بين أسطرِ حياتي لينتقوا سطر الأمان فيضعوا تحته علامة مخضّبة بدماء شهداء.

أنا من أصبَحَ على شهيدٍ وأمسى على شهيد كم يلزمني من الجرأة لأقفَ أمام أصابعَ تشيرُ إلى صدري لأغدو مشروع شهيد قبل أن أتممَ ما بَدَأهُ أبي .. تابَعَهُ أخي .. وما أوكِلَ الآن إليَّ وحدي ..؟

يُفرحُني مَوقِعي هذا .. لأشعرَ أنني على مَوعِدٍ مَعَهُما بعد ساعة أو ساعتين .. بعد يوم أو يومين .. بعد حلم أو حلمين ..

ولا أستطيع تحديد مشاعري .. فمِنْ وسط المكان الذي ارتبَطا به عمراً تعتليني غصَّة تذكرني بالحاضر والمستقبل من دونِهما .. فأرفض التفكير إلا بالماض لأشعر بنفسي أعود طِفلاً .. فأتمنى لو أبقى العمر كله.

هي : كم عليَّ أن أعتذرَ لما أثرتُ من آلامٍ بقلبكَ ..؟

وكم عليَّ أن أخجلَ بآلامي التي رحتُ أطاردك بها مصرّة بأنها تستحِقّ الاستماع .. !

بينما أعجز الآن عن تضميدِ جراحك النازفة أمامي فقداً

هو : من سَمَحَ للقدر أن يَعْبَثَ دائماً بأحلامي .. ؟

كيف يُرْسمُ طريق أخي فقط لأنه مُرتبط باسمي ..!

فإن كنتُ من المسؤولين باسمي عمّا حدثَ له .. هل أصبَحَ من المسؤولين باستشهادهِ عمّا سوفَ يحدثُ لي ؟

هي : يا إلهي .. إنَّ هذا الشَّجن يُثير فضولي لأعلمَ حالتك لحظة تلقيتَ الخبر .

هو : بعدَ دخولِكِ إلى المَشفى بثلاثةِ أيّامٍ هاتفني ليقول إنَّه قادم على أوّل طائرة .. حاوَلتُ مَنعه لكنَّ عناده كان أقوى بإصرارهِ على الوقوف إلى جانبي، وفي اليوم التالي اجتمعتُ ببعض الأقرباء في منزلِهِ لنقرِّرَ ما علينا فِعله للحفاظِ على سلامته .

كنتُ جالساً على رخامَةِ المَطبخِ حين دَخَلَ أحدهم لِيَغمِزَ لبعض الحضور بالخروج من مَجْلِسي فاسْتوقفته بانفِعالٍ وأنا أصرخ : ما الأخبار .. ؟؟؟؟

هاتِ ما عندكَ بسرعةٍ فلا وقت لدينا للغمز .. لقد وَصَلنا بأنَّ الطّائِرةَ حَطّتْ في المطار وعلينا إرسال من يضمن سلامة وصولهم إلى المنزلِ .

يردّ بتلكؤ : ماعاد لِلسُّرعَةِ أهمّيَّة فقد اسْتقرَّتِ الرَّصاصة الثالثة وسط قلبهِ .

دَخَلَتْ قشعريرة لن أستطيعَ وَصْفها مِنْ أصابع قدَمَيَّ المُتدَلِيَةِ فوقَ الرّخام البارد .. لترتفعَ ببطءٍ مُميتٍ إلى باقي جسدي .. مُستقرَّةً بأعلى شعرةٍ مِنْ رأسي..لأشعُرَ بأنّ دمائِيَ تجَمَّعَتْ في مسامِ الشَّعر وكأنَّ أحداً يشدّني من الأعلى بينما جسدي يَلتصِقُ بكلِّ ثقلهِ فوقَ الرّخام الذي شعرتُ فجأةً بأنَّ حرارته تفوقُ حرارة جسدي.

حاولتُ أن أتماسَكَ كيلا أسقطَ فاقداً الوعي فيفوتني سماع التفاصيل ..

بينما تلك القشعريرة تسْري في بَدَني انسَحَبْتُ مُتكِئاً على ما تبقى مني لأجلسَ في غرفةٍ مُجاورةٍ ..

فارغ ذهني من أيّ شيءٍ ولا شيءَ يَسْتقِرُّ في رأسي سوى تلك القشعريرة التي باتت مزعِجَةً حَدَّ الألم.

ألمٌ في كلّ شيءٍ .. كلّ مكان من جسدي .. وحتى من حياتي ..

لا شيءَ من الغدِ .. وكثير من الأمسِ يَعْبُرُ أمامي كشريطٍ سينمائيٍّ بَطيءٍ ولا يَرْتسِمُ أمامَ عينيّ سوى منظر قبر فارغ ..

بدا القبر مُتسِعَاً جداً .. أكثر من أن يُحْفرَ لجسدِهِ النحيل .. وكأنني رَسَمته لأدفنَ فيه كلّ عمري معهُ ..

دَخَلتُ إلى غرفتِهِ كمَنْ يجمعُ أدلة لِيُكذبَ خبراً..

أفتحُ الخزانة لأرى أثوابه فيُراودني شكٌ بأنهُ يختبيءُ خلفها..أغلقها لأرى صورته متوسِّطةً الجدارَ أمامي .. أقترب من الفِراش لِأرى جَسَده مُمَدَّداً.

كم يلزمني من الزمن لإغلاق كلّ شيءٍ كان بداخِلِهِ ..! لأستطيعَ مواصَلة العيش دون أن يكونَ لهُ سطرٌ يكتبه في صفحاتِ حياتي المتبقِّية .

هي : انظر .. إنه الغروب .. جئتَ بي إلى هذا المكان لتؤكدَ لي بأنه أجمل من الشروق ..

أيُحزنك أن أقولَ بأنَّ الغروب يذكرني بآخر صورة لِمَنْ رَحَلوا ..؟

هو : أبداً .. أَحْترِمُ كلّ ما تقولين .. لكنه آتٍ فلِمَ لا نحاول الاستمتاع بوقتِنا ..!

هي : هذا أفضل من أن أقضيَ وقتاً أشرحُ بأنّ رحلتك هذه هي من أكثر الأوقاتِ التي قضيتها حزناً .. أَو تكونُ لأجلِ هذا اصطحبتني ..!!!!

هو : تقصَّدتُ أنْ تكوني آخر من أراه قبل سفري .. قد لا أعود .. أو قد يغتالونني لحظة عودتي كما فعلوا مع أخي .. ليْتَهُم يَمْنحوني فرصةَ الموتِ هنا ...

حينها ستطالبينَ بحفلٍ إضافيٍّ .

هي : ماذا إن طالبتُ بتغيير هذا المكان .. هل تعتبرني مجرَّدة من المشاعر .. ؟

أتمنى أن تمْسِكني بيدي ونصْعَد جبلاً مثلاً

هو : ألا أستطيع أن أمْسِكَ يَدكِ على الشّاطىءِ ..!

هي : إنْ سَقطَ أحدنا على الشّاطىء لن يؤذيه رمله ولا حتى ماؤه .. أمّا إنْ سقط مِنْ علوّ الجبل فلا شيءَ سوى يد الآخر تتكفل بإنقاذهِ قبلَ بلوغِ الهاوية .

هو : أيّة امرأةٍ أنتِ .. كم كنتُ بحاجةٍ إليكِ طوال حياتي .. كما اليوم .. أين كنتِ بحقّ ؟؟؟

هي : كنتُ غيمة .. أسبحُ في الفضاءِ حتى وجدتكَ صعقاً كالبرقِ .

هو : ما تركتِ لي شيئاً أكونه بعدَ لقياكِ .. وأنتِ تجيبينَ عن سؤالين لم أطرَحْ مِنهُما سوى واحد .

هي : أنتَ السَّحاب .

هو : لقد شارَفَ النهار على الانتهاءِ
ما رأيكِ أن أصطحِبَكِ إلى مَسْقطِ رأسك ..؟

هي : لن أكون معك إلا بأمان .. اليوم أنا ريشة في فضائِكَ .. لا قوّة تقاوم مهبَّ رياحك فاعصف كيفما تشاء

هو : أما تخشينَ هبوبي ..؟

هي : إن كنتُ معكَ سأخشى هبوبك .. فماذا أخشى بعد رحيلك !!!

هو : الآن أدركتُ كم تحَمّلنا ثقة الآخر من مسؤوليّة .. آمل ألا تفشلي بي .

هي : أرانا تبادلنا الأدوار .. بالأمس كنتُ أُصَلي ألا تفشلَ بي ..!

هو : أتعلمينَ معنى أن يفشلَ شخصٌ بآخر .. ؟

هي : كلّ المعاني لا تطيعني للإجابةِ على سؤالٍ كهذا .. ليبلغَ الصَّمتُ بحضرتِكَ أرقى معنىً لحياتي .

هو : كما كل حياتي المتبقية لن تطيعَني لإسعادِكِ .. لتبلغي بوجودِكِ السّاعة كلّ حياتي .

هي : أخشى أن تفقدها إن أنتَ أفلتَّ يدي لحظةَ تسَلق

هو : ظننتكِ ستقولينَ لحظةَ سفر

هي : ما كان البعد يوماً غياب بالنسبة لي

هو: أتنتظريني .. !!

هي: طوال حياتي وأنا أنتظرك دونَ أن أعلمَ بأنكَ موجود .

هو: تراهُ الألم هو ما جَمَعَنا ..!

هي : بل الأمل .

هو : يا إلهي .. كم أنتِ غريبة لتجعليني أفرغ من كلّ شيءٍ بأوَّلِ حوارٍ معكِ .. !

كيفَ غيّرتِ حياتي .. ؟

أنا الذي ما وَقفتُ في طريقِكِ إلا لأمنحكِ الحياة .. وإذا بكِ كلّ الحياة ..

ما الذي كان ينقصكِ لِتنتظري ..؟

هي : الهويّة .

هو : لكنك بالأمسِ كنتِ تفاخرينَ بهويّتكِ أمامَ زوجة أخي ..

أخشى أن تتراجعي عن وعدٍ قطعْتِهِ أمامَ حزنِها .

هــي : أقصِـدُ هــويّتي الـتي بقيَـتْ يـِ المركــز الثقــافيِّ مـع حقيبتي .. ولن يستطيعَ أحد مَنحي هويّةً ريثما أتمَكنُ مـن استعادتها سواك .

هو : وتطوِّعينَ الألفاظَ لتجعليني أتوقفُ عندَ شفيرِ هاويةٍ

هي : أتخشى الهاويةَ وأنتَ مُمسِك بيدي ..!

هو : لا .. لا أخشى سوى صمتكِ .. فلا تصمْتي .

هي : آه لو أنكَ قرأتَ صمتي لسنين قبل أن ألتقيك

هو : ألا يكفيني أنني قرأتُ نظراتِ عينيكِ .. !

هي : كمْ عليَّ أن أعتذرَ أمامَكَ ..؟

أشعر بأنني لا أحاورُ إلا نفسي .. لمْ يشبهني أحد بقدْرِ ما تشبهني .. تكمِلُ ما أبدأ دائماً .. وتبدأ ما أنوي

هو : أظنكِ كنتِ تنوينَ تغيير المكان ..

هاتِ يدكِ من الآن ولن أتركها حتى أبلغَ بكِ القِمَم .

جابَتِ السّيارة شوارع المدينة لتصلَ إلى مرتفعٍ شاهقٍ .. كان الصّمتُ أبلغ من الكلام .. ومنظرالوادي أسفل الطريق يَكتبُ بخيالِها قصائِدَ حُبٍّ لِتغمِضَ عينيها وتقول : غنّ لي.

بدأ يغني بصوته الأجَشّ : يا مسافر وحدك ..

وفايتني ..

ليه تبعد عني .. ؟؟؟؟

وتهجرني............!

والدّموعُ تنهَمِرُ بغزارةٍ فوقَ وجنتيهِ .. وبينَ الغصَّةِ والأخرى نفس طويل .. و شَهقة ألم .

غنى لها حتى نامَتْ كلّ أحزانها بصَحْوَةِ مَواجعِهِ تألَمَتْ عليهِ كثيراً .. لكنها كلما فكرَتْ بإسكاتِهِ شَعَرَتْ بحاجَتِهِ المُلحَّةِ للبكاء فازدادَتْ صَمتاً .

وَصلَتِ السّيارة أعلى الجبل لكنّ كثافة الأشجار حَجَبَتْ عنها توقعات المشهد .

هو : بعد قليلٍ سَنَصِلُ إلى حيثُ أركنُ سَيّارتي .. أغمِضي عينيك لأرى مدى ثقتك بي .. ولا تَمَلّي فقد يطول انتظارِكِ..

سأمسِكُكِ من يدِكِ ولن تفتحي عينيك حتى أتركها

هي : سأفعل فلن يكون بصري أقوى من بصيرتِكَ

يَسْحَبها بحَذرٍ نحو أعلى القِمَّةِ لِيَصِلَ بها ذروة اِلتِقاءِ الجَّبَلِ بالسَّماءِ

يقفُ وراءها وهو لا زال مُمْسِكاً بكِلتا يَدَيها ..
يَلفها فتصبح أمامه مَصلوبَة اليدين إلى صدرها..
يسندُ رأسها بوجنتِهِ .. ويَهْمِسُ فيِ أذنها وهو يَسْحَبُ يَدَيهِ مِنْ يَدَيها بِبُطءٍ لِتسْتريحَ راحَتيها فوقَ كتِفيها فيُطوّق خصرَها بقوةٍ ويقول : الآن افتحي
ما أن فتحَتْ عينيها حتى شعَرَتْ بشيءٍ يُشبهُ الإغماء .. يشبه لحظة التتويج .. أو لحظة تمتدُّ إليها يد الله لتعلنَ دخولها الجنه .. بينما هي على بُعدِ خطوة واحدة من وادي جَهَنم .
إن هيَ مَدَّتْ يَدَيها لِلسَّماءِ سَتمْسِك غيمة .. و إن انفلتتْ من بين ذراعيهِ ستغدو بأسفلِ الوادي
ما هذا الشّعور الغريب .. بين ذراعيهِ هي قربَ الغيوم
يُطوِّق جسدها لتختفي بين أحضانِهِ .. تأخذُ نفساً عميقاً يَملؤها برائِحتِه التي تبعِدُها عن اليتمِ .. بينما أنفاسها تكاد تنقطعُ مِن قوَّةِ زندِهِ .. ولا تشعِرُه بألِمها خِشيَة أن يرفع يده فتخسر حتى ذاك الألم منه .
ما الذي سوف تحيا لأجله بعد الآن ..!

ما اشتهَتْ لعمرها لحظةً أكثر أماناً .. أكثر انبهاراً .. وأكثر خيالاً من هذه اللحظة

تخشى أن تشْهَقَ فتسْتيقِظ َ من حلمٍ ..

هذه أرقى لحظة صَمْتٍ عَبَرَتها .. لكنَّ الرَّقصَ أخطر حالة الآن لذا لن تعَبِّرَ عن صَمْتِها إلا بالصَّمتِ .

تتراكضُ غيومُ الخريفِ المُحمَرَّةِ فوق رأسها .. وقطرات الندى ترطِّب شعرها وساعِدَيها .. وهي ثملة ترخي ثِقلَ ظهرها على صدره القويِّ .. لا شيءَ يُدَفئ جَسَدَها المُتجَمِّدِ سوى أنفاسه على عنقها

ليتَ الدُّنيا تراها وهي في هذا الحضن الآمِنِ قبل أن ينهالَ صوتٌ للرَّصاص ِمُدوٍّ في أذنها ..

حرارةٌ لِدِماءِ صدرهِ ترتفعُ في ظهرها .. وأنيناً هامِساً قبل أن يَنفلِتَ خصرها من بين ذراعيه إلى الهاوية .. لِتشدَّ على يده بيدٍ .. وتطلق الأخرى نحوَ السَّماءِ علها تتمَسَّكُ بغيمةٍ .

رغم أن زمن السُّقوط ِلم يكن مُتناسِباً معَ المسافةِ الفاصِلة بين قِمَّةِ الجبل و أسفل الوادي .. إلا أنها قبلَ أن تتحَسَّسَ جسدها المُمَدَّدِ على الأرض قربَ السَّرير بَدأَتْ تبحَثُ عنه .. عن آثار دماءِ صدرهِ الحارَّة على ظهرها ..

ترفعُ رأسها إلى السَّماءِ تبحثُ عن غيمةٍ فلا تجد سوى جدران غرفتها الباردة وسقفٍ يدلف فوقَ سريرها ليُرَطّبَ شعرَها وساعِدَيها .. ويُتلف كلّ الأوراق المُبَعثَرَةِ قربَ قلم الرّصاص .

ثبَّتتْ نظرها نحوَ الباب لتشعرَ بأنها أغلقتهُ تاركةً وراءه كلّ من تحبّ .. فأحَسَّتْ بأنَّ المنزلَ مُمْتلِئ رغمَ خلوِّه وبأن نهارها كان شاقاً بعد أن أنهَتْ مَراسِمَ الدَّفنِ و العزاء وعادَت لِتخلعَ حِذاءَ الألم تحتَ سريرٍ افتَرَشَ الدُّموع الحارَّة .. والتحَفَ غصَّةً إلى الأبدِ .

ما أن احتضَنتْ وسادَة ألمها باكيةً حتى نهَضَتْ مُسرعَةً لتفتح الباب .. وكأنها تريد أن تسمعَ خُطا الموتِ قبل أن يَصِلَ لِيَغتالَ أنفاسها المُتقطِّعَةِ .

لِتمسِك القلم وتكتب حالةً تشعر بها للمَرَّةِ الأولى بهذه المرارة .. دون أن تعلم من أينَ اِسْتمَدَّتْ جُرأتها رغم محاولاتٍ فاشِلة في السّابق ..

كم تخاف هذا التَّعاطي لِمُخَدِّر الفأل السَّيّءِ وتخشى أن تكون حاسَّتها صادِقةً لِدَرجَةٍ توَدُّ خَنقها قبل أن تنبِّئها بحزنٍ كبيرٍ.. افتقادٍ كبيرٍ .. وحسرةٍ تدوم أبداً .

فتبدأ الكتابة علها تفرُغ .. لِتبقى جَوْفاً فارغاً عله يُصبحُ قادراً على استقبالِ حلمٍ جديدٍ بعد نهارٍ شاقٍّ لم تفعَل به شيئاً سوى البكاء..

إلا أنها شَعَرَتْ بحَقٍّ كأنها تعودُ مِنْ دَفنٍ لِتنامَ سريعاً كي تصحوَ باكِراً لِتُبَخِّرَ القبرَ على عجلٍ

تمَّت .. ٢٠١٣/٥/٣٠

٠٢,٠٠

غنوة

الفهرس